مجلة جامعة الملك سعود، م ١١، الآداب (١)، ص ص ١٣٩-١٩٠ (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

سبيطلة من مواقع الإسلام الحاسمة (٢٧-٢٩هـ/ ٦٤٧-٦٤٩م): دراسة تاريخية تحليلية للأحداث الواردة فيها

محمد بن ناصر بن أحمد الملحم

أستاذ مشارك، قسم التاريخ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية،
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأحساء، الهفوف،
المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر بتاريخ ١٥/ ١٢/ ١٤١٦هـ؛ وقبل للنشر بتاريخ ٣٠/ ١٠/ ١٤١٧هـ)

ملخص البحث. يشتمل هذا البحث على:

● التعريف بسبيطلة: جغرافيا (الموقع وأهميته)، وتاريخيا بإعطاء فكرة موجزة عن تاريخ هذه المنطقة لأهمية هذا بأحداث البحث، والتعريف بسكانها من البربر والروم والفرنجة، ودياناتهم، وبيان الحال في إفريقية بصفة عامة قبل وصول المسلمين إليها.

● دوافع الفتح: وهي محاولة نشر الإسلام في هذه البلاد لأنه رسالة عالمية، والقضاء على الوثنية والطبقية والفساد المنتشر في هذه المنطقة، ولأهمية سبيطلة التي تعتبر البوابة الرئيسية للجزء الداخلي من بلاد إفريقية، والقضاء على تحالف البربر والروم والفرنجة ضد المسلمين، ثم محاولة الوصول بالإسلام إلى أوروبا - الأندلس - عن طريق إفريقية.

● وفي نهاية هذا البحث خاتمة بأهم نتائجه ومنها: انهيار أعظم قلاع إفريقية الداخلية، وانفتاح الطريق أمام المسلمين للتوغل في هذه البلاد، والقضاء على تحالف البربر والروم والفرنجة، وأثر هذا الفتح على الدولة البيزنطية، ومحاولة الوصول إلى أوروبا - الأندلس - عن طريق إفريقية فيما بعد، وغيرها.

التعريف بسبيطلة

جغرافيا

سبيطلة مدينة من مدن إفريقية في وسط سهل تونس ، وإلى الجنوب الغربي من مدينة القيروان ، [١] إذ بينهما مسافة سبعين ميلا ، كما حدد موقعها في جنوب قرطاجة [٢] بمائة وخمسين ميلا ، وتعتبر العاصمة الحقيقية لإفريقية بدلا من قرطاجة ، وهي توجد على أحد فروع نهر مجردة حيث يشرب سكانها من مجرى ذلك الماء ، وذكر أنها تختفي خلف غابة من الأشجار السامقة . [٣]

تاريخيا

وكان لهذه المدينة أهمية تاريخية عظيمة ، ففيها دار المُلْك وهي المدينة العظمى ، [٤] كما أن الطرق الحربية الرومانية ثم البيزنطية كانت تصلها بكل المدائن الكبرى ونقاط الحراسة التي كانت تملأ ذلك السهل التونسي ، وكانت تقع على الرباط الثاني الذي يبدأ من الساحل

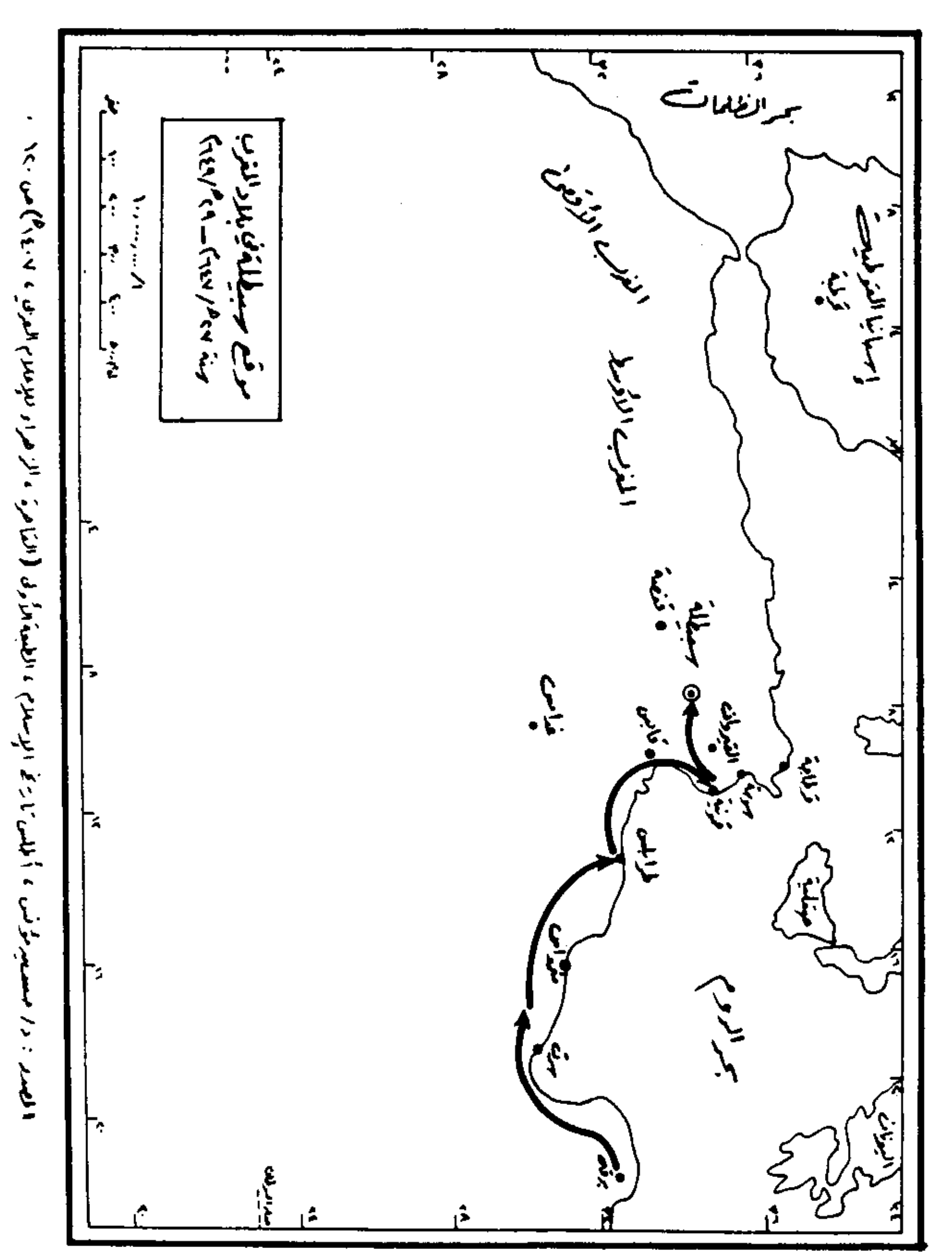
---

(١) توجد على بعد نحو ١٢٠ ميلا من مدينة قرطاج أي ما يعادل ٢٠٠ كم؛ التفصيل في : الحسن بن محمد الفاسي ، *وصف إفريقية* ، ط٢ (بيروت : دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣م)، ١ : ٤٠ .

(٢) وتسمى قرطاج ، وهي مدينة من مدن إفريقية توجد على ساحل البحر المتوسط ، بينها وبين تونس ١٢ ميلا أي حوالي ٢٠ كم؛ التفصيل في : شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي ، معجم *البلدان* (بيروت ، دار بيروت، ١٤٠٤ هـ)، ٤ : ٣٢٣ ؛ الفاسي ، *وصف إفريقية*، ٢ : ٦٨ -٦٩ .

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، *العبر وديوان المبتدأ والخبر* (بيروت : مؤسسة جمال، ١٣٩٩هـ)، ٦ : ١٠٣ ؛ حسين مؤنس ، *فتح العرب للمغرب* (القاهرة : مطبعة مصر ، ١٣٦٦هـ)، ١ ، هامش ٣ .

(٤) أحمد بن إسحق اليعقوبي ، *البلدان* (بغداد : مكتبة المثنى ، ١٣٣٧هـ)، ١٠٧ ؛ ياقوت ، معجم *البلدان*، ٣ : ١٨٧ ؛ أبو الحسن عز الدين علي الجزري بن الأثير ، *الكامل في التاريخ* ، ط١ (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧هـ)، ٢ : ٤٨٣ ؛ حسن محمود ، *ليبيا بين الماضي والحاضر* (طرابلس : دار الفتح ، ١٩٦١م)، ١٠٦ ، هامش١ .


موقع سبيطلة في بلاد المغرب
سنة ٢٧هـ/٦٤٧م – ٢٩هـ/٦٤٩م
إسبانيا القوطية
قرطبة
بحر الظلمات
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
سبيطلة
قفصة
القيروان
سوسة
قرطاجة
صقلية
اليونان
بحر الروم
قابس
طرابلس
غدامس
سرت
برقة
المصدر: د/ حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الطبعة الأولى (القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٧هـ) ص ١٢٠ .

شكل رقم ١ .

عند مغمداس الصغرى ، ثم يمر بها (أي سبيطلة) وينتهي عند البحر المتوسط شمالا ، ولها قلعة حصينة بنيت في القرن الرابع الميلادي . وقد بدأت أهميتها تظهر منذ ذلك القرن حين استولى البربر على الرباط الأول وهو يتمثل في : قفصة ، [٥] تلبت ، ثفست – أمايدرا . وأصبحت الدولة البيزنطية [٦] تعول على الرباط الثاني ، الذي تعد سبيطلة من أمنع حصونه ، وقد بقيت حصونها على مناعتها وحالها حتى الفتح الإسلامي .

ولعل هذا هو الذي دفع بالقائد جريجوريوس [٧] إلى أن يختارها عاصمة له بدلا

(٥) مدينة قديمة بناها الرومان ، وبقيت في أيدي دوقاتهم إلى أن جاء عقبة بن نافع في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنهما فحاصرها ، وفتحها المسلمون ودمروا أسوارها ، وهي تقع على بعد ثلاثة أيام من مدينة القيروان ؛ ياقوت ، معجم *البلدان* ، ٤ : ٣٨٢ ؛ الفاسي ، *وصف إفريقية* ، ٢ : ١٤٣ .

(٦) يقع تاريخ الدولة البيزنطية في ثلاث مراحل ، انظر في ذلك : السيد الباز العريني ، *الدولة البيزنطية* (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٢م)، ١ .

(٧) هذا اسمه الأصلي ، جريجوريوس بن نيقتياس بن جريجوريوس ، ولكن المسلمين أطلقوا عليه (جرجير)؛ انظر في ذلك : محمد بن عمر الواقدي ، *فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان* (القاهرة : مطبعة المحروسة ، ١٣٠٩هـ) ، ١٥١ ؛ عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، فتوح *إفريقية والأندلس* (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٤م) ، ٣٥ ؛ أحمد بن يحيى البلاذري ، فتوح *البلدان* (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ) ، ٢٢٨ ؛ أبو محمد أحمد ابن أعثم الكوفي ، *الفتوح* ، ط١ (الدكن : دار اللواء ، ١٣٨٩هـ)، ٢ : ١٣٥ ، وذكره باسم « جرجين » ؛ عبدالله بن أبي عبد الله المالكي ، *رياض النفوس* ، ط١ (تونس : نشره حسين مؤنس ، ١٣٧٠ هـ)، ١٠ ؛ ابن الأثير ، *الكامل* ، ٢ : ٤٨٣ ؛ أبو عبد الله محمد المراكشي بن عذاري ، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب* (ليدن : بريل ، ١٩٤٨م)، ١ : ١٠ ؛ عماد الدين إسماعل بن عمر بن كثير ، *البداية والنهاية* ، ط ٥ (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٩ هـ)، ٧ : ١٥٨ ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، ٢ : ١٢٩ ؛ أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة* (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة ، ١٣٨٣ هـ)، ١ : ٨٥ ، محمد بن أبي القاسم القيرواني بن أبي دينار ، ، *المؤنس في أخبار أفريقية وتونس* ، ط٣ (تونس : المكتبة العتيقة ، ١٣٨٧هـ) ، ٢٦ ؛ أحمد بن خالد السلاوي ، *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى* (الدار البيضاء : دار الكتاب ، ١٣٧٣هـ)، ١ : ٣٧ ؛ عبد الرحمن بن محمد الدباغ ، *معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان* (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٦٨م)، ١ : ٣٤ ، أحمد بن النائب =

من قرطاجة ، لأنها أصبحت أعظم مدن السهل الداخلية بعد تهدم أسوار (ثفست) أمنع مدن الإقليم من كثرة ما دار بها من الحروب ، فلبث بها حتى وافاه المسلمون .[(٨)]

سكانها

سكن مدينة سبيطلة عناصر مختلفة من الناس في مقدمتهم « البربر » وهم كما وصفهم ابن خلدون :[(٩)] « جيل من الآدميين من ولد كنعان بن حام بن نوح واسم أبيهم مازيغ ، سكنوا جهة المغرب من القدم ، وملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه ، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ، ويظعن أهل العز منهم والغلب لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار ، ومكاسبهم الشاة والبقر والخيل في الغالب للركوب والنتاج . »

وقد أمعنوا في مبدأ الاحتفاظ بحالتهم الاجتماعية ، وعدم التطور الذي ينتهي بهم للخروج عنها ، فأخذوا ينظرون إلى كل ما هو أجنبي نظر الريبة والتحفظ ، ولذلك ظلوا على حالتهم التي عرفوا عليها سواء في سكناهم أم في نظام معيشتهم أم في لباسهم إلى الآن ، ولم يتطوروا فيها إلا تطورا بسيطا بالرغم من مخالطتهم لكثير من الأمم .[(١٠)]

ومن الجدير بالذكر أن البربر سبقوا الروم إلى النزول في أرض إفريقية وكانت قاعدتهم جهة القيروان وتونس ، وكل من جاء بعدهم من أمم إلى الشمال الأفريقي كالفنيقيين

= الطرابلسي ، *المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب* (الباب العالي : مطبعة جمال أفندي ، ١٣١٧هـ) ، ١ : ٢٤ ، وذكره باسم (جرجر) ؛ السيد عبد العزيز سالم ، *تاريخ الدولة العربية* (الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٢م) ، ٣٦٣ ؛ وسماه البعض (جريجوري) ، محمد النجار ، *فتوحات الإسلام في إفريقية والمغرب* (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٣٨٧هـ) ، ١٥ .

(٨) مؤنس ، *فتح العرب* ، ٩٦ ، هامش ٢ .

(٩) ابن خلدون ، *العبر* ، ٦ : ٨٩ ، ٩٧ .

(١٠) انظر : عبد العزيز إدريس ، «موقف البربر إزاء الفتح الإسلامي» مقال بصحيفة *المعهد المصري للدراسات الإسلامية* ، مدريد ، ٧ (١٩٥٤م) ، ٣ .

والوندال - الذين أتوا قبل الميلاد - والروم الذين بعدهم فإنما جاءوا عن طريق الغزو أو عن طريق الفتح كالمسلمين . [11] وهذا معناه أن البربر هم السكان الأصليون لمدينة سبيطلة لقربها الشديد من القيروان .

الروم

من الأمم التي سكنت الشمال الإفريقي وفرضت نفسها على القرطاجنيين ، الذين ما أن ملكوا إيطاليا الجنوبية حتى أساءوا معاملة أهلها واستبدوا بهم ، فلم يطيقوا صبرا على هذا الاستبداد فحاربوهم ، فرجحت كفة الروم عليهم - القرطاجنيين - فانتهز البربر فرصة رجحان كفة الروم فانضموا إليهم بزعامة (ماكسن البربري)، [12] وكان ذلك نتيجة لما قاسوه وعانوه من الظلم والطغيان ، فمَلَك الروم قرطاجة وخربوها وأحرقوها ، وأصبحت أثرا بعد عين ، وكان ذلك سنة ١٤٦ قبل الميلاد ، واستولى الروم بعد ذلك على جميع البلدان التي كانت تابعة لقرطاجة ، ومن ضمنها طرابلس ، وهذا أول عهد الروم بالشمال الإفريقي .

وقد بقيت إفريقية وعاصمتها سبيطلة تحت سيطرة ملوك الروم بالقسطنطينية إلى أن فتحها المسلمون سنة ٢٧ هـ/ ٦٤٧م فأجلوهم عنها . ولأجل هذا نرى الطليان يقولون إن طرابلس بلدنا بينما أن بلادهم الأصلية هي روما وما حولها من بلاد شمال البحر المتوسط ، وإنما جاءوا إلى طرابلس غازين ، حيث أخذوها بالقوة من الفينيقيين والوندال ، كما أخذها المسلمون منهم في الفتح الإسلامي . [13] وهنا يبدو الفرق واضحا بين الغزو الرومي والفتح الإسلامي ، حيث الغزو البيزنطي وقبله الرومي لشمال إفريقيا عمل عسكري غرضه استكباري واستغلالي صرف ، على عكس الفتح الإسلامي الذي كان هدفه نشر الإسلام الحنيف الذي فيه صلاح الدنيا والآخرة .

---

(١١) ابن خلدون ، *العبر* ، ٦ : ١٠٣ ؛ أحمد الزاوي ، *تاريخ الفتح العربي في ليبيا* ، ط ٣ (طرابلس : دار الفتح ، ١٩٦٩م)، ٢٤ .

(١٢) الزاوي ، *تاريخ الفتح العربي* ، ٣٢ ، ٣٣ .

(١٣) الزاوي ، *تاريخ الفتح العربي*، ٣٧ ، ٣٨ .

الفرنجة

وسمّوا بذلك نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى فرانسة (فرنسا) . وقد استفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم ، وعبر البحر المتوسط إلى إفريقية مع الروم ، فملكوها ونزلوا أمصارها العظيمة ، مثل سبيطلة ، وجلولاء ، وقرطاجة ، وغيرها من الأمصار الأخرى ، وغلبوا من كان بها من البربر حتى اتبعوهم على ديانتهم النصرانية ، وهادنوهم ، ودفعوا إليهم الجباية طواعية . (١٤)

وكانوا يميلون إلى إنشاء عواصمهم حول الجبال وما وراءها إلى الجنوب خوفا من غزو أمم الشمال التي كانت تسكن جنوبي أوروبا على الساحل الشمالي للبحر المتوسط . (١٥)

وتذكر المصادر أن جريجوريوس - المقتول عند الفتح الإسلامي - كان من الفرنجة وليس من الروم ، وكذا معظم سكان إفريقية إنما هم من الفرنجة ، فكان هؤلاء هم الذين ولوا أمر إفريقية ولم يكن للروم فيها شيء من ولاية ، وإنما الجند الذين بها - إفريقية - للفرنجة . وما سمع في كتب الفتح الإسلامي من ذكر الروم في فتح إفريقية من باب التغليب ، لأن المسلمين يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنجة ، وما قاتلوا في بلاد الشام إلا الروم فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية ، فغَلبوا اسم الروم على جميع أمم النصرانية ، ونقلت الأخبار عن المسلمين كما هي . (١٦)

ديانتهم

الحقيقة أن البربر - وهم السكان الأصليين لسبيطلة - لم يكونوا ليستقروا على دين واحد ؛ فقد كانوا يدينون بالمجوسية شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب ، وفي بعض الأحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم ، فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم مثل حمير (أبي القبائل اليمنية) وأفريقش بن صيفي (من التبابعة) . فكان البربر

---

(١٤) ابن خلدون ، *العبر*، ٦ : ١٠٧ .

(١٥) الزاوي ، *تاريخ الفتح* ، ٢٦ - ٢٧ .

(١٦) ابن خلدون ، *العبر* ، ٦ : ١٠٧ ؛ السلاوي ، *الاستقصا* ، ١ : ٧٥ .

في عهود هؤلاء المتغلبين يدينون بدينهم. [١٧]

ولكن بعد ظهور المسيحية [١٨] في أوروبا (سنة ٣٣٠م في عهد قسطنطين الأكبر)، وفي حوالي سنة ٥٧٦ م نجح البيزنطيون في تغيير عقيدة الكثيرين منهم وأصبحوا مسيحيين. [١٩]

وما أن حطّ الفرنجة رحالهم - بعد عبورهم البحر المتوسط - ببلاد إفريقية، ونزلوا أمصارها العظيمة - كسبيطلة وجلولاء - حتى بدأوا في محاولة فرض عقيدتهم على سكانها، فاستجاب لهم البعض وبقي البعض الآخر على عقيدته. [٢٠] نعم أصبحت إفريقية نصرانية، ولكن انتشارها في إفريقية لم يتم إلا بعد أن أريقت الدماء، فلما جلس قسطنطين على العرش رأى تلك المذاهب الدينية سبب كل اضطراب وهيجان، فلم ير غير قهرها بالأسنّة والسيوف. [٢١] وهذا يعني أن البربر بإفريقية والمغرب قبل الإسلام كانوا تحت ملك الفرنجة، كما كانوا كذلك على دينهم - النصرانية - الذي اجتمعوا عليه مع الروم، حتى يقال إن المسلمين وصلوا وفيها أكثر من مائتي أسقفية. [٢٢]

الحال في إفريقية قبل الإسلام

من الواضح أن مدينة سبيطلة حوت كثيرا من العناصر البشرية من البربر والروم

---

(١٧) ابن خلدون، *العبر*، ٦: ١٠٦.

(١٨) اعترضت المسيحية عدة مشكلات منها، انقسام اليعاقبة Monophysites أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة - وهو المذهب الرسمي للقسطنطينية - على أنفسهم، فتدخلت تيودورا - زوجة جستنيان - للمحافظة على وحدة الكنيسة، وقامت بإجراءات كان من نتيجتها ثورة أهل إفريقية الذين احتجوا على الإمبراطور في القسطنطينية، والبابا في روما واستخدم جستنيان ضدهم العنف والإرهاب، مما عمل على اتساع الهوة بين الإمبراطور إفريقيا؛ سعد زغلول، *تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال* (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٩م)، ١: ١٢٣ - ١٢٦.

(١٩) الزاوي، *تاريخ الفتح*، ٢٤.

(٢٠) الزاوي، *تاريخ الفتح*، ٢٦.

(٢١) محمود، *ليبيا*، ١٠٢.

(٢٢) زغلول، *تاريخ المغرب*، ١: ١٢٦.

والفرنجة وبمرور الزمن اندمج بربر السواحل في الروم بسنة تقليد الضعيف للقوي ، واستهان المغلوب ما عليه الغالب من عادات وتقاليد . أما البربر الذين يسكنون الجبال وما وراءها فقد احتفظوا بقوميتهم وعاداتهم ، ولم يتأثروا بعادات الروم ، ولذلك نراهم كثيرا ما قاوموا الروم وحاولوا إجلاءهم عن وطنهم . [٢٣] وكانوا قبيل الإسلام قد أعطوا الطاعة للفرنجة - كما سبق - الذين كانوا يملكون معظم بلادهم - آنذاك - وعلى البربر مناصرة الفرنجة كلما احتاجوا إليهم ، [٢٤] وهذا يعني أن جيش جريجوريوس كان يتكون من الفرنجة والروم والبربر . وكان هذا القائد المذكور خاضعا للدولة البيزنطية ونائبا عن هرقل في إفريقيا ، ولكنه لم يلبث أن خلع طاعة هرقل ، واستقل بالملك وضرب العملة باسمه . [٢٥] فكان عليه أن يبعد نفسه وقومه من الروم - الذين انضووا تحت سلطته- عن الساحل حتى لا يتعرض لغضب هرقل وجيوش الدولة البيزنطية . [٢٦]

ثم إن اختياره للداخل بالذات سيدفع البربر إلى الانضمام لجانبه ، خاصة وأنه بحاجة إلى مساعدتهم له ، فوجوده بين ظهرانيهم سيكون دافعا لهم إلى حمايته حماية كاملة .

ويبدو أن جور الحكم البيزنطي وظلمه لكل بلاد إفريقيا قاطبة - وخاصة البربر - هو الذي جعلهم يَهُبُّون لمناصرة الفرنجة مع قائدهم ، إذ المعروف أن إفريقية آنذاك كانت تعاني الإهمال من الحكام البيزنطيين ؛ لأن بعضها تابع لبطريرق الإسكندرية وبعضها الآخر تابع لبطريرق سبيطلة أو قرطاج ، وكل منهما مشغول بما يليه من اضطرابات مذهبية وطائفية ، وسرعان ما فقدت الوحدة بين تلك الأجزاء ، كما فقدت بين عاصمة بيزنطة [٢٧] وولاياتها الإفريقية عامة ، ولم تعد نقاط الحراسة على ساحل البحر المتوسط إلا امتدادا صوريا للسلطة القديمة .

(٢٣) ابن خلدون ، *العبر*، ٦ : ١٠٧ ؛ الزاوي ، *تاريخ الفتح*، ٣٦ - ٣٧ .

(٢٤) ابن خلدون ، *العبر* ، ٦ : ١٠٧ ؛ الزاوي ، *تاريخ الفتح*، ٢٧ .

(٢٥) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، *فتوح مصر وأخبارها* (بغداد : مكتبة المثنى ، ١٩٢٠م)، ١٨٣ ؛ ابن أبي دينار ، *المؤنس*، ٢٦ .

(٢٦) مؤنس ، *فتح العرب* ، ٧٥ .

(٢٧) إمبراطور الروم ، بنى عليها قسطنطين الأكبر سورا وسماها بعد ذلك قسطنطينية نسبة إليه ، وتعرف اليوم بإستانبول ، ياقوت ، معجم *البلدان*، ٤ : ٣٤٧ .

ومهما يكن فقد ترك هذا الظلم والعسف - الذي حملته الدولة البيزنطية - أثره في نفوس البربر ، مما جعلهم ينظرون بعد ذلك إلى كل أجنبي عنهم نظرة الريبة والتحفظ ، في الوقت الذي كانت نفوسهم تتوق إلى الحرية وكانوا يأنفون من الخضوع لأي قوة مهما كانت ، لأن فترة حكم البيزنطيين لهم تركت آثارا سلبية جدا في نفوسهم ، وجعلتهم يعتقدون أن كل أجنبي عنهم سيكون على شاكلة البيزنطيين . ففي الوقت الذي ظلت فيه بعض القبائل البربرية على ما هي عليه من عدم إعلان الطاعة للمسلمين ، لأنها كانت تشعر بأن لها سيادة عظمى ومصالح ستضيع من جراء هذا الخضوع ، [٢٨] سارع جزء كبير منهم - البربر - إلى الدخول في الإسلام لأنهم وجدوا فيه ما كانوا يتطلعون إليه ، ولا غرو في ذلك ، فالإسلام كرّم الإنسان وتكفل بحماية حياته ، فدمّه حرام لا يجوز سفكه ، وحياته مصونة لا يجوز الاعتداء عليها ، [٢٩] بل إن المعتدي على حياة إنسان بغير حق - في نظر الإسلام - يعتبر معتديا على الإنسانية كلها . وخير دليل على ذلك قول الله تعالى ﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ . [٣٠]

والإسلام دين المساواة في جميع الحقوق والواجبات مساواة مطلقة ، [٣١] وهو دين اليسر والبساطة لا تعقيد فيه ، كما أنه دين الطهارة والعفاف وكلها أمور حرِم منها البربر في ظل الحكم الروماني ثم البيزنطي من بعده .

---

(٢٨) شكري فيصل ، *حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري* (القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٣٧٢هـ) ، ١٤٠ .

(٢٩) حسين شاهين ، *حقوق الإنسان في الإسلام*، ط١ (الرياض : مطبعة سفير ، ١٤١٣هـ)، ٢١ .

(٣٠) سورة المائدة ، آية ٣٢ .

(٣١) فنجد حسان بن النعمان الغساني - بعد ذلك - يعقد لأبناء الكاهنة على ستة آلاف لكل واحد منهم ، حيث انضموا مع أتباعهم الآخرين إلى المسلمين ، وشكلوا صفوفا عظيمة قاتلت من أجل الدين الإسلامي، ونشره بين الناس قاطبة ؛ المالكي ، *رياض النفوس*، ١ : ٣٦ ، ابن عذاري ، *البيان*، ١ :٣٨ ؛ الدباغ ، *معالم الإيمان*، ١ : ٦٧ .

المسلمون وفتح إفريقية

دوافع الفتح الإسلامي

خلق الله تبارك وتعالى الناس على تعدد أجناسهم وألوانهم وألسنتهم ، وبعث فيهم الرسل والأنبياء ليأمروهم بعبادة الله وحده وترك ما سواه . وكان خاتمهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث للناس كافة ليدلهم على الخير والصلاح وينهاهم عن الشر والفساد في الأرض ، ثم حمل خلفاؤه رضي الله عنهم هذه الدعوة إلى جميع أصقاع المعمورة ، ولعل هذا من أبرز دوافع الفتح الإسلامي ؛ فإن قبلوا الهداية كفوا عنهم وإن لم يقبلوا فرضوا عليهم الجزية وإن أبوا قاتلوهم .

كذلك جاء هذا الفتح لحماية الإنسان وكرامته . يقول الله تعالى : ﴿ ولقد كَرَّمنا بني آدم وحَمَلناهم في البَرِّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفَضَّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلا﴾ .(٣٢)

وكذلك لتطهير الأرض من الظلم والفساد ، ونشر العدل والمساواة بين الناس كافة .

إصلاح هذه الأرض وبناؤها وإعمارها بعد أن كانت خرابا بلقعا .

إصلاح البشر في أخلاقهم وأرواحهم وعقولهم وسعادة الناس في دنياهم وآخرتهم . وعلينا أن نلاحظ الفارق الجوهري بين حملات الفتوح الإسلامية وغيرها من الحملات الأخرى السابقة عليها ، فالفتوح الإسلامية كانت فتوح خير وبركة وتحرر وانطلاق ، أما الحروب الأخرى ، فكانت تهدف للاستعلاء على الشعوب لحماية أطماع شخصية تثيرها العصبية العنصرية أو العصبية الدينية أو المطامع والمنافع أو حب الأمجاد والمغانم والأسلاب ، فهي حروب خراب ودمار واستعباد وتحكم ، وشتان بين الفتح الإسلامي والغزو الروماني أو البيزنطي أو غيرهما .

لذلك لم ينجل الفتح الإسلامي عن غالبين ومغلوبين كما هو الحال في كل فتح ، وإنما انجلى عن أمة واحدة لها رب واحد ونبي واحد وقرآن واحد وسنة واحدة ، ولذلك استقر الفتح الإسلامي وخلد ، بينما عفت الأيام على حروب الآخرين .

---

(٣٢) سورة الإسراء ، آية ٧٠ .

المحاولات الأولى حتى فتح سبيطلة

لا نعجب حين نرى كثيرا من المصاعب قد ذللت أمام المسلمين الذين تحركوا صوب الناحية الغربية من أرض مصر ، فهؤلاء البربر قد ضاقوا ذرعا من الحكم البيزنطي الجائر ، فلقد تواصلت جهود المسلمين بدءا من برقة [٣٣] وحتى مدينة شروس ، [٣٤] حيث أخضعوا هذه المنطقة كلها لسلطة الدولة الإسلامية ، وإن عدم تدخل جريجوريوس في أمر الدفاع عن هذه المدن يوحي بأن هذا الجزء الممتد ما بين سبرت [٣٥] ومصر لم يكن تابعا رسميا له . ومما يؤكد لنا ذلك اجتهاده مع القسم الغربي من طرابلس ، حيث بذل في تحصينه الشيء الكثير ، [٣٦] كما أقام فيه حاميات عظيمة . ولقد كشف هذه الحقيقة القصور الماثلة في نفس الخط الممتد بين قابس [٣٧] وسبرت ، كقصور الزارات وقصر بني مأمون وقصر بني خطاب وقصر جرجيس وقصر صالح وقصر مركيا . [٣٨]

(٣٣) اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية ، واسم مدينتها انطابلس ، بينها وبين ساحل البحر المتوسط ستة أميال ، وتشتمل على خمس مدن ، انظر : اليعقوبي ، *البلدان* ، ١٠١ ؛ ياقوت ، معجم *البلدان* ، ١ : ٣٨٨ ؛ الزاوي ، *تاريخ الفتح* ، ٤١ - ٤٢ .

(٣٤) ويقال لها - سروس - بمهملتين ، وهي من أكبر عواصم البربر القديمة في جبل نفوسة التي كانت موجودة زمن الفتح ، ومازالت خرائبها إلى اليوم ، وكانت تحتوي على ثلاثمائة قرية ؛ ياقوت ، معجم *البلدان* ، ٣ : ٢١٧ ؛ الزاوي ، *تاريخ الفتح* ، ٧٢ .

(٣٥) هي السوق القديمة لمدينة طرابلس ؛ ياقوت ، معجم *البلدان* ، ٣ : ١٨٤ .

(٣٦) السيد عبد العزيز سالم ، *تاريخ المغرب الكبير* (بيروت : دار النهضه العربية ، ١٩٨١م) ، ٢ : ١٤٩ .

(٣٧) مدينة بين طرابلس وصفاقس ، وتبعد عن طرابلس ست مراحل إلى جهة القيروان ، وهي ذات مياه جارية وأشجار متهدلة وفواكه رخيصة ؛ أبو القاسم بن حوقل النصيبي ، صورة *الأرض* (القاهرة : دار الكتاب الإسلامي ، د. ت.) ، ٧٢ ؛ ياقوت ، معجم *البلدان* ، ٤ : ٢٨٩ .

(٣٨) السيد عبد العزيز سالم ، *تاريخ المغرب في العصر الإسلامي* ، ط٢ (الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٢م) ، ٦٢ .

كان على فاتح مصر - عمرو بن العاص [٣٩] - أن يبعث بأخبار تقدمه في تلك المناطق لإفريقية الصعبة المسالك إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما أن عليه أن يبين له أن إفريقية قريبة منهم ، وأنه ليس بينهم وبينها سوى تسعة أيام . فلم يأذن الخليفة بغزوها لأن الغازي لهذه البلاد يحتاج إلى الجيوش الكافية أولا ، ولا يغيب عن الذهن أن المسلمين في تلك الآونة لم يجتمع لهم إلا عدد قليل إذا ما قيس بأعداد الجيوش الإفريقية التي تكون خليطا من أجناس متعددة بربرية وإفرنجية . ثم إن التوغل في تلك الصحارى ليس بالأمر الهين ، وهذا ما دفع بالخليفة إلى أن يرفض الغزو ، ويقول : « لا . إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها . »[٤٠] ويبدو أن هذا الحكم لم يأت من فراغ ، فالخليفة كانت تأتيه أخبار تلك الجهات من خلال السرايا التي كانت الدولة الإسلامية تبعث بها وكذلك بعض أخبار التجار ، ومن بين هذه الأخبار أن أهل إفريقية يؤدون إلى ملك الروم شيئا من المال ، وكانوا يغدرون به كثيرا فلا يعطونه .[٤١]

وهذا يعني أن صفة الغدر قد تأصلت فيهم ، فهم بالتالي سيغدرون بالمسلمين إذا أتيحت الفرصة لهم . كذلك خشي خليفة المسلمين أن تتابع الجيوش الإسلامية الفتح في بلاد المغرب البعيدة، فلا يستطيع ملاحقة أخبارها أو أن تخرج عن رقابته، خاصة وهي تحت قيادة قائد طموح مثل عمرو بن العاص . يضاف إلى ذلك حساسية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الشديدة وخوفه على دم المسلم أن يراق هدرا فيحاسب عليه أمام الله .

ولذا بات من الواجب على عمرو بن العاص أن يتراجع إلى الوراء من حيث بدأ ،

---

(٣٩) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي - أبو عبد الله - فاتح مصر وأحد عظماء المسلمين، التفصيل في : محمد بن سعد، *الطبقات الكبرى* (بيروت : دار صادر، ١٣٨٠ هـ)، ٢٥٤؛ خير الدين الزركلي، *الأعلام*، ط٧ (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٦م)، ٥ : ٧٩ .

(٤٠) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، *فتوح مصر والمغرب* ، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة : لجنة البيان العربي)، ٢٣٢ .

(٤١) البلاذري ، فتوح ، ٢٢٧ .

وعند رجوعه أبقى عقبة بن نافع [٤٢] واليا على برقة - المكان الذي انتهى إليه - ليدعو أهلها إلى الإسلام. ولقد نجح في مهمته تلك، وكون له أتباعا وأعوانا، فاستجاب للإسلام عدد كبير من البربر، [٤٣] وأصبحت هذه البلاد - برقة - قاعدة تنطلق الجيوش الإسلامية منها .

وعندما تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه [٤٤] أملت عليه سياسة عزل الولاة عن الأقاليم وتولية آخرين بدلا منهم أن يولي أخاه من الرضاعة - هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح [٤٥] - على مصر ويعزل عمرو بن العاص عنها وذلك سنة ٢٧هـ / ٦٤٧م . [٤٦]

فتح سبيطلة

دوافع فتح المدينة

أدرك المسلمون أهمية مدينة سبيطلة بالنسبة لعمليات فتح بلاد المغرب ولذلك قرروا وضع خططهم لفتحها وذلك لعدة عوامل :

● تعتبر سبيطلة البوابة الرئيسية للجزء الداخلي من بلاد إفريقية ، إذ أن المسيطر عليها يعد مسيطرا على جزء عظيم من البلاد الإفريقية ، فهي كذلك - إن صح التعبير -

---

(٤٢) هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الأموي القرشي الفهري ، ولد قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة ، توفي سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م، التفصيل في: ابن عذاري ، *البيان*، ١ :١٩ ؛ السلاوي، *الاستقصا* ، ١ :٣٦-٣٧. .

(٤٣) حيث أصبح السكان من زويلة وبرقة سلم كلها ، حَسُنَتْ طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية؛ البلاذري ، فتوح، ٢٢٦ .

(٤٤) كانت فترة ولايته من ٢٣ هـ/ ٦٤٤م إلى ٣٥ هـ/ ٦٥٦ م.

(٤٥) هو أبو يحيى عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري ، فارس بن عامر بن لؤي ، أسلم وحسن إسلامه ، شهد فتح مصر ، وولاه عثمان رضي الله عنه ولايتها ، ثم غزا إفريقية ، توفي سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧م؛ المالكي ، *رياض النفوس*، ١ :٤٤ ؛ ابن عذاري ، *البيان*، ١ :٩ ؛ ابن أبي دينار ، *المؤنس* ، ٢٦ - ٢٧ .

(٤٦) ابن الأثير ، *الكامل* ، ٢ :٤٨٢ .

بمنزلة القلب من الجسم .

● السيطرة على أكبر المعاقل في بلاد إفريقية - ذلك الحين - حيث يحكم القبضة عليها القائد جريجوريوس .

● القضاء على القوة المتحالفة من الفرنجة والبربر والروم أو على أقل تقدير تفريقها وتشتيت شملها حتى لا تشكل حجر عثرة ضد القوة الإسلامية الناشئة والتي وصلت إلى حدود برقة ، فأرادوا مهاجمتهم قبل أن يفكروا هم في ذلك .

● رغبة المسلمين الأكيدة في إنقاذ البربر الذين أعلنوا في الظاهر خضوعهم للفرنجة وقائد التحالف - جريجوريوس - في الوقت الذي كانوا يترقبون فيه وصول المسلمين على أحرّ من الجمر ، باعتبار أن أخبار المسلمين وصلت إليهم من مصر قبل أن تصل الجيوش الإسلامية ، فقد سمعوا عن عدالتهم في أحكامهم ، ومساواتهم بين الناس في الحقوق واحترامهم لمعابد المسيحيين واليهود وأملاكهم وأعراضهم .[٤٧]

● عَزْمُ المسلمين على الوصول بهذا الدين الجديد - رغم قلة أعدادهم - إلى بلاد الأندلس ، و لذلك أرادوا التعجيل بالسيطرة على هذا الحصن الحصين للوصول منه إلى بقية البلاد الإفريقية ، ثم الاتجاه شمالا إلى الساحل - ساحل البحر المتوسط - لإكمال الطريق إلى الأندلس ، إذ أن عدم مرورهم بسبيطلة والسيطرة عليها قد يؤدي إلى محاولة تطويقهم من الروم والفرنجة ومَنْ تحت سيطرتهم من البربر ، ثم ينتهي الأمر بقطع خطّ الرجعة عليهم .

إعداد الجيش الإسلامي

خليفة المسلمين عثمان رضي الله عنه يطبق سياسة الشورى

طبق عثمان بن عفان رضي الله عنه مبدأ الشورى الذي كان معمولا به في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، [٤٨] فبعد أن جاءه كتاب أخيه عبد الله بن سعد يستأذنه في

---

(٤٧) محمود ، *ليبيا* ، ١٠٠ .

(٤٨) طبق رسول الله صلى الله عليه وسلم سياسة الشورى في معظم غزواته في بدر وأحد والخندق، أبو محمد عبد الملك بن هشام، *السيرة النبوية* (الرياض : إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ١٣٥٦هـ)، ٢ : ٢٥٣ ؛ ٣ : ٧ .

فتح إفريقية،(٤٩) جمع كبار الصحابة في المدينة(٥٠) وذوي الرأي فيهم ، وعرض عليهم هذا الموضوع المصيري لاستيضاح رأيهم فيه ، فالموافقة على الخروج يترتب عليها أحد أمرين : إما النجاة وانتشار الإسلام إلى ما وراء تلك البلاد ، أو الهزيمة ومعها انحسار المدّ الإسلامي وتوقفه .

وما من شك في أن رجالاً عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلموا وتدربوا على يديه ، وخاضوا حروبا متعددة إلى جانبه ، فوجدوا لذة الجهاد في سبيل الله ، إن مثل هؤلاء لا يمكن أن يصدر عنهم ما ينم عن الرفض أو التخاذل ، بل سيكون موقفهم موقف المؤيد ،(٥١) خاصة حين لمس هؤلاء الرغبة من الخليفة نفسه في الخروج للجهاد ، لحرصه على مد نشر الإسلام في هذه البلاد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سلفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وكذلك لعله أراد أن يخوض غمار المنافسة الشريفة في ميدان الجهاد للخليفة السابق (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) الذي فتح الله في عهده أرض فارس وأرض الروم ، فأراد أن ينافسه في جهة الشمال الإفريقي ، ويفتح إفريقية كما فتحت مصر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعا .

---

(٤٩) ذكر الواقدي في كتابه *فتوح الإسلام* ، ١٤٩ أن ابن أبي سرح - حين هلك قسطنطين - كتب إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه يستأذنه في فتح إفريقية ، ويخبره بكثرة أموالها وضعف رجالها ، فكتب إليه عثمان رضي الله عنه ، إني غير فاعل ! لأني سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : «لا مكنت أحدا من المسلمين بغزو إفريقية ما حملت عيني الماء وإني ما أرى في فتحها خيرا وقد كرهها عمر قبلي . »

(٥٠) منهم ، معبد بن العباس بن عبد المطلب ، ومروان بن الحكم بن أبي العاص والحارث بن الحكم ؛ البلاذري ، *فتوح البلدان*، ٢٢٨ ؛ المالكي ، *رياض النفوس*١ : ٩-١٠ ، سالم ، *تاريخ المغرب في العصر الإسلامي*، ٦٧ .

(٥١) ولكن في البداية كانوا قد ترددوا ، وخاصة ، سعيد بن زيد الذي قال للخليفة ، إني كرهت الغزو لهذه البلاد بعدما سمعت الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « ما أغزيتها أحدا من المسلمين ما حملت عيناي الماء . » الواقدي ، *فتوح الإسلام*، ١٥٠ ؛ المالكي ، *رياض النفوس*، ١ : ٩ .

وإذا كان الحال كذلك فهو أشبه ما يكون بالعلاء بن الحضرمي [٥٢] الذي سعى بدوره للمنافسة الجبارة حين أراد أن يأتي بعمل ينافس به سعد بن أبي وقاص [٥٣] في جهة المشرق. [٥٤]

وبهذه الروح المعنوية العالية من الخليفة عثمان (رضي الله عنه) والتي كان لها أثرها في رعيته هب الكثير لإجابة نداء الجهاد والتوغل في صحراء إفريقية الخطيرة. وخطب الخليفة خطبة حثهم فيها على كثرة الصبر وقوة اليقين، كما شجعهم فيها على الجهاد، وأوصاهم ألا تهولهم كثرة العدو، [٥٥] ثم طلب من الحارث بن الحكم أن يكون قائدا لهم حتى يصلوا إلى القائد الأعلى (ابن أبي سرح).

وسمي الجيش الذي عبأه عثمان رضي الله عنه وأوكلَ إليه فتح إفريقية بجيش العبادلة. [٥٦] وقد شارك في هذا الجيش من قبيلة مهرة ستمائة رجل، ومن غنت (من الأزد) سبعمائة، ومن ميدعان (من الأزد) سبعمائة، [٥٧] ومن أسلم ثلاثمائة ومن مزينة

---

(٥٢) انظر سيرة هذا الصحابي مفصلة في: يوسف بن عبد البر القرطبي، *الاستيعاب في معرفة الأصحاب* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ)، ٣: ١٩٢، ١٩٣؛ علي الجزري ابن الأثير، *أسد الغابة في معرفة الصحابة* (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.)، ٤: ٧؛ محمد ناصر الملحم، *العلاء بن الحضرمي في التاريخ* (الهفوف: مطبعة الحسيني، ١٤٠٩هـ).

(٥٣) سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف، أحد العشرة المبشرين بالجنة، يكنى أبا إسحق، توفي سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٥م؛ التفصيل في: عبد الله بن مسلم بن قتيبة، *المعارف* (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٧هـ)، ٢٤١-٢٤٢؛ محمد بن سعد، *الطبقات الكبرى* (بيروت: دار صادر، ١٣٨٠هـ، ٣: ١٣٧؛ أبو نعيم أحمد الأصفهاني، *حلية الأولياء وطبقات الأصفياء* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ)، ١: ٩٢.

(٥٤) عن غزو العلاء لفارس من جهة البحرين انظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٢: ٣٨٢؛ ابن كثير، *البداية*، ٧: ٨٥؛ ابن خلدون، *العبر*، ٢: ١٠٩؛ الزركلي، الأعلام، ٤: ٢٤٥.

(٥٥) ابن عذاري، *البيان*، ١: ٩.

(٥٦) سمي بذلك لاشتراك عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن زيد بن الخطاب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٥٧) ابن عبد الحكم، *فتوح مصر*، ١٨٤.

ثمانمائة ومن بني سليم أربعمائة وخمسون ،[٥٨] ومن جهينة ستمائة ومن بني الديل وضمرة خمسمائة ومن بني غطفان وأشجع سبعمائة ومن بني كعب بن عمرو أربعمائة ،[٥٩] وهذا العدد يناهز ستة آلاف ،[٦٠] وكان الخليفة عثمان رضي الله عنه قد أعان الجيش بألف بعير من ماله ، يُحْمل عليها ضعفاء الناس ، وحمل على خيل وفرق السلاح وأمر للناس بأعطياتهم .[٦١]

وحين وصل هذا الجيش المذكور مصر انضم إليه جيش آخر شارك فيه بعض الأفراد من القبط ،[٦٢] ثم انضم إليهم المسلمون الموجودون في برقة ،[٦٣] والذين ساروا معهم ممن أسلم من البربر .

واتجه الجميع – وكانوا حوالي عشرين ألفا[٦٤] أو أكثر[٦٥] – بقيادة عبد الله بن أبي سرح ، وسلك بهم طريق الساحل ، فاتجه ناحية طرابلس[٦٦] حتى يوهم العدو أنه ليس

---

(٥٨) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٠ .

(٥٩) أحمد بن عبد الوهاب النويري ، *نهاية الأرب في فنون الأدب* ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٧ ، جزء ٢٢ ، ورقة ٦٢ب ، ٦٣ أ ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، ٢ : ١٢٨ .

(٦٠) وقيل بلغ عشرة الآف ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٤ : ٢٥٦ ؛ ابن الأثير ، *الكامل* ، ٢ : ٤٨٢ ؛ زيني دحلان ، *الفتوحات الإسلامية* (القاهرة : المطبعة الحسينية ، د. ت.) ، ١ : ١٢٠ .

(٦١) ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ٩ .

(٦٢) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١١ ؛ الدباغ ، *معالم الإيمان* ، ١ : ٣٤ ؛ عبد الوهاب منصور ، *قبائل المغرب* (الرباط : المطبعة الملكية ، ١٩٦٨م) ١ : ٩٠ .

(٦٣) ابن الأثير ، *الكامل* ، ٢ : ٤٨٣ ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، ٢ : ١٢٩ ، السلاوي ، الاستقصا ، ١ : ٣٦-٣٧ ؛ عبد اللطيف البرغوثي ، *تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى بداية العهد العثماني* (بيروت : دار صادر ، ١٣٩٢هـ) ، ٤٩ .

(٦٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ٢٤٧ ؛ المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٠ ؛ ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ٩ ؛ ابن كثير ، *البداية* ، ٧ : ١٥٨ ؛ الدباغ ، معالم الإيمان ، ١ : ٣٣ ؛ أحمد بن أبي الضياف ، *إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان* (تونس : المطبعة الرسمية ، ١٩٦٣ م) ، ٧٨ ؛ الطرابلسي ، *المنهل* ، ١ : ٢٥ ؛ منصور ، *قبائل المغرب* ، ١ : ١٠٩ .

(٦٥) قيل بلغ ثلاثة وعشرين ألفا ؛ الواقدي ، فتوح ، ١٥١ ؛ ابن أعثم ، *الفتوح* ، ٢ : ١٣٦ .

(٦٦) البرغوثي ، *تاريخ ليبيا الإسلامي* ، ٤٧ .

لديه رغبة في الداخل ، فيطمأنوا ولا يستعدوا للحرب .

موقف البربر والروم والفرنجة

قوات جريجوريوس بين الحقيقة والأسطورة

بعد ما خلع القائد جريجوريوس طاعة هرقل اتجه لتحصين الجزء الغربي من طرابلس، ثم أقام فيها حاميات ، وعدل عن البقاء في قرطاجة لكونها على الساحل خشية أن يتعرض لغضب هرقل ، واختار مدينة سبيطلة لعدة اعتبارات لعل أهمها ليكون إلى جوار حلفائه من البربر في الداخل بهدف مناصرتهم له والوقوف إلى جانبه في حالة تعرضه لأي خطر من الأخطار . أضف إلى ذلك أنه كان يتحاشى الاحتكاك بالقوة الإسلامية التي بدأت أخبارها تلوح في الأفق. لكن هذا لا يعني أنه لم يكترث بتلك القوة ، بل أخذ يُعد العدة للقائها فكون جيشا كبيرا من أطراف التحالف - البربر والفرنجة والروم - اختلفت الروايات التاريخية في تقديره فبعضها يقول إنه بلغ مائة ألف ،[٦٧] والبعض الآخر يذكر أنه وصل إلى مائة وعشرين ألفا ،[٦٨] بل إن هناك من يقدر قوات جريجوريوس بمائتي ألف مقاتل .[٦٩] وهذه الأعداد - لا شك - فيها مبالغة لا يمكن إخفاؤها لأسباب :

أولا : من المستحيل أن يقابل المسلمون هذا العدد الهائل بعشرة آلاف فقط من جيوشهم باعتبار أن المسلمين قد دخلوا بنصف الجيش في حين أبقي على النصف الآخر (عشرة الآف) موزعا على الكمائن بين الأودية والجبال .[٧٠]

---

(٦٧) الدباغ ، *معالم*، ١ : ٣٥ ؛ ابن أبي الضياف ، *إتحاف*، ٧٨ .

(٦٨) المالكي ، *رياض النفوس*، ١ : ١٤ ؛ ابن الأثير ، *الكامل*، ٢ : ٤٨٣ ؛ ابن كثير ، *البداية*، ٧ : ١٥٨ ؛ ابن خلدون ، *العبر*، ٢ : ١٢٩ ؛ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، *تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام* (القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٣٦٨هـ) ، ٢ : ٧٩ ؛ السلاوي ، *الاستقصا* ، ١ : ٣٧ ؛ دحلان، *الفتوحات* ، ١ : ١٢١ .

(٦٩) ابن كثير ، *البداية* ، ٧ : ١٥٨ ؛ ابن تغري بردي ، *النجوم الزاهرة* ، ١ : ٨٥؛ الذهبي ، *تاريخ الإسلام* ، ٢ : ٧٩.

(٧٠) الواقدي ، *فتوحات* ، ١٥٢ .

ثانيا : أن جماعة كبيرة من البربر كانت قد انضوت تحت لواء عقبة بن نافع بعد أن ملّت جور وظلم البيزنطيين ، وهذا يفيد أن من سار إلى جانب هذا القائد جريجوريوس لا يصل إلى ربع ذلك العدد المذكور وربما تكون هذه الأعداد الواردة صحيحة في حالتين :

الأولى : انضمام أهل البلاد من البربر والروم والفرنجة من غير المحاربين إلى جانب الجنود المقاتلين لمشاركتهم ، خوفا على أنفسهم من قوة المسلمين أن تكتسحهم . فاختلط الحابل بالنابل ، وظن من ظن أن الجميع يحاربون ، وهذا ما لم يحدث البتة ، إذ لو حدث لسادت الفوضى والاضطراب جيوشهم ، ولكانت نهاية القائد جريجوريوس قبل أن تبدأ المعركة ، لأن هذا الكم المنضم إليه غير مؤهل لدخول حرب مثل هذه الحرب ، حيث تحتاج الحرب إلى خبرة ودراية في استخدام السلاح ، فهم غالبا لن يكون في أيديهم السلاح ، وحتى إن وجد فهم لا يجيدون استخدامه في المعركة ، وهذا ما لم تتطرق إليه أي من المصادر التي بين أيدينا ، وهذا الفرض غير محتمل .

الثانية : أن تكون هذه الأعداد قد تجمعت في المعركة الثانية سنة ٢٩هـ / ٦٤٩م حينما نقض جريجوريوس الصلح الذي عقده مع المسلمين بعد نهاية المعركة الأولى ، وهذا ما سنستوضحه لاحقا إن شاء الله .

اللقاء الأول بين المسلمين وقوات جريجوريوس قبل سبيطلة

موقف جريجوريوس من الدعوة الإسلامية

سار الخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم أجمعين) على منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغ الدعوة الإسلامية ، فتصدى الصدّيق (رضي الله عنه) لحركات الردة عن الإسلام ، وبعدها كتب الله تعالى التوفيق والنجاح للمسلمين في نشر دينه داخل شبه الجزيرة العربية ، ثم انتقل المسلمون بالدعوة إلى جميع أصقاع الأرض ، فأحرز القادة المسلمون انتصارات عديدة في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه على الفرس والروم في أكثر من موقعة ، كما استطاعوا فتح مصر على يد عمرو بن العاص .[٧١]

---

(٧١) ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ٨ .

ومما تجدر الإشارة إليه أن نظام الفاتحين كان يحمل معه كل اليسر والسهولة ، فالجيش الإسلامي يلحق به الدعاة ، بل إن القادة أنفسهم كانوا دعاة وحتى الجند ، فتجدهم يعرضون دعوة الحق - الدخول في الدين الإسلامي - على حاكم المدينة ، فإن قبلها كان له ما للمسلمين وعليه ماعليهم من حقوق وواجبات ؛ وإن رفضها فله خيار آخر وهو دفع الجزية السنوية للدولة الإسلامية ؛ فإن أبى ذلك فعليه أن يُهيِّء نفسه للدخول في حرب فاصلة مع المسلمين .

ولما انتقل المسلمون بفتوحاتهم إلى بلاد إفريقية كانت استراتيجيتهم تقوم على مهاجمة العاصمة الإفريقية بالداخل (سبيطلة) . لذا لم يضربوا الحصار على ما مروا به من مدن على الطريق ، فتركوا أهل طرابلس متحصنين داخل أسوارهم ، (٧٢) كما تركوا أهل قابس كذلك ، لأن القائد المسلم (ابن أبي سرح) كان يرى أن الاستمرار في حصار هذه المدن فيه مضيعة للوقت وإهدار للجهد والسلاح ، كما أنه بذلك سيحقق الهدف الذي من أجله أقيمت هذه التحصينات لتكون خطا دفاعيا للروم يعرقل جهود المسلمين . (٧٣)

تقدم المسلمون مباشرة إلى قمونية (٧٤) بعدما وصلت إليهم إمدادات من الخليفة على رأسها عبد الله بن الزبير ، حيث هللوا لها وكبروا وتحمسوا أكثر مما هم عليه ، وكان على ابن أبي سرح أن يبدأ بعرض الدخول في الدين الإسلامي على جريجوريوس ، وبالفعل عرضه عليه حيث طلب منه أن ينطق بالشهادتين ، فرفض رفضا قاطعا ، ثم كرر عرضه عليه مرة أخرى فرفض ونخر (٧٥) واستطال ، وقال : « لا أفعل هذا أبدا . » فعرضوا

---

(٧٢) لكن سيطرت سرية للمسلمين على مركب كان راسيا بالقرب من طرابلس ، حيث أسروا من فيه ، حتى أدركهم ابن أبي سرح بجموع جيشه ، فأمر بقتل الأسرى ؛ المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٠ ؛ الدباغ ، *معالم* ، ١ : ٣٤ .

(٧٣) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٠ .

(٧٤) مدينة بإفريقية كانت موضع القيروان قبل تمصيرها ، وقيل إنها تعرف بسوس المغرب ؛ ياقوت : معجم ، ٤ : ٣٩٩ .

(٧٥) النخير هو مد الصوت والنفس في الخياشيم ، ويعني به هنا أنه تكلم مع غضب شديد ونفور ؛ أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور ، *لسان العرب* (بيروت : دار صادر ، ١٣٧٤ هـ) ، ٥ : ١٩٩ .

عليه دفع الجزية ، فكان الرد هو الرفض كذلك ، بل والإصرار على ألا يدفع حتى ولو درهما واحدا ، فلم يبق بعد ذلك إلا الخيار الأخير وهو القتال . (٧٦) ويبدو أن جريجوريوس رفض الإسلام لأسباب هي :

- أنه كان حريصا على النصرانية فقد عاش مع هذا الدين فترة طويلة ، وليس من السهل عليه أن يتخلى عنه أو يتركه بين عشية وضحاها .

- وربما خشي على نفسه من القتل خلال زمن يسير من إعلان الإسلام وذلك من قبل حلفائه الروم .

- ولا يستبعد أن يكون سبب رفضه الإسلام حتى لا تتحدث الملوك عنه(٧٧) بأنه أرهبته قوة المسلمين فخضع لها ، فأراد المحافظة على كبريائه .

- وقد يكون بسبب استهانته بالإسلام والمسلمين ، حتى أنه اعتقد اعتقادا جازما بأن الدخول في حرب معهم سيحسم النتيجة لصالحه . (٧٨)

ولكن الواضح أن هذا القائد لم يكن حريصا على التمسك بدينه بدرجة كبيرة لأنه - كما هو معروف - لم يستقر على دين واحد ، فقد كان وحلفاؤه البربر على الوثنية ثم تحولوا إلى النصرانية ، ثم دخل بعضهم الإسلام . فرفْضُ جريجوريوس الدخول في الإسلام لا يدل على أنه كان حريصا على التمسك بدينه لعدم استقراره أصلاً على هذا الدين ، وإنما كان في الحقيقة حريصا على ملكه والدفاع عن منصبه ، فهو قد وضع في

---

(٧٦) الواقدي ، فتوح ، ١٥١ ؛ ابن أعثم، *الفتوح* ، ٢ : ١٣٥-١٣٦ ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، ٢ : ١٢٩ ؛ السلاوي ، *الاستقصا* ، ١ : ٣٧ ؛ الدباغ ، *معالم*، ١ : ٩؛ دحلان ، *الفتوحات*، ١ : ١٢١ .

(٧٧) الواقدي ، فتوح ، ١٥١ ؛ ابن أعثم ، *الفتوح* ، ٢ : ١٣٦ .

(٧٨) لذلك نجده تهيأ لقتال المسلمين قبل أن يأمر ابن أبي سرح أصحابه بأخذ الأهبة والاستعداد ؛ الواقدي ، فتوح، ١٥١ .

الحسبان أن هذا الملك العريض من طرابلس [٧٩] إلى طنجه [٨٠] سيخرج من تحت يده لو عقد عزمه على الدخول في الإسلام .

الفتح الثاني لإفريقية سنة ٢٧هـ/ ٦٤٧ م (سبيطلة الأولى)

حقائق هامة عن الجيش الإسلامي الفاتح

ورد في خطبة[٨١] منسوبة لعبد الله بن الزبير حقائق على درجة كبيرة من الأهمية، خاصة فيما يتعلق بالجيش الإسلامي الفاتح مؤداها :

- أن القائد المسلم (عبد الله بن أبي سرح) جعل الطريق الذي سلكه مع الجيش على مراحل ، كل مرحلة مسافة بريدين ، وإذا كان البريد فرسخين ، والفرسخ ثلاثة أميال ، [٨٢] فهذا يعني أنه جعل بين كل مرحلة وأخرى مسافة ستة أميال (ما يقارب عشرة كيلو مترات) .

- وكان الجيش الإسلامي يسير أثناء اتجاهه إلي سبيطلة في الأبْرَدَيْن ، [٨٣] فكانوا

---

(٧٩) مدينة عتيقة في آخر أرض برقة ، وأول أرض إفريقية ، بناها الرومان ، ثم حكمها الوندال ثم المسلمون بعد أن حاصروا دوقها ستة أشهر ؛ ياقوت ، معجم ، ١ : ٢١٧ ؛ الفاسي ، *وصف إفريقية* ، ٢ : ٩٧ .

(٨٠) تدعى عند البرتغاليين (طنجيرة) وهي مدينة قديمة عظيمة ، يقول الثقات من المؤرخين إن الرومان هم الذين أسسوا طنجة على الشاطىء في الوقت الذي كانوا يحكمون فيه أسبانيا ، وتوجد على بعد ثلاثين ميلا من سبتة ، ومائة وخمسين ميلا من فاس ؛ الفاسي ، *وصف إفريقية* ، ١ : ٣١٣-٣١٤ .

(٨١) هذه الخطبة قالها عبد الله بن الزبير في المدينة حين عاد من سبيطلة مبشرا بنصر المسلمين ، وأوْرَدتُها في ملحق خاص في آخر البحث .

(٨٢) ابن منظور ، *لسان العرب* ، ٣ : ٤٤ ، ٨٦ .

(٨٣) الأبردان هما الظل والفيء وهما الغداة والعشي ، سميا بذلك لبردهما ؛ ابن منظور ، *لسان العرب* ، ٣ : ٨٣-٨٤ .

يتوقفون في الظهيرة ويسيرون ليلاً وهذا - بلا شك - حقق لهم أمرين هامين : عدم تسرب أخبارهم إلى العدو ، وتفادي حرارة الشمس المحرقة .

- وكانوا يسرعون عند المناطق المقفرة الجدبة ، والتأني والتباطؤ في الأقاليم الخصبة ، وذلك بهدف أن يمتار الناس وترعى الخيل والإبل فيها ، وقد هيأ المسلمون أنفسهم بإصلاح السلاح الذي معهم ، كما هيأوا الخيل للدخول في الحرب ، واستمروا على هذه الحال أياما عديدة . وكذلك حرص المسلمون على اتباع المنهج الصحيح في دعوة هؤلاء للدخول في الإسلام ، أو دفع الجزية عن صَغار إنْ رفضوا الإسلام ، ومع أن الموقف كان من قبَلِ العدو سلبيا - كما بينا سلفا - إلا أنهم صبروا عليهم أياما عديدة بلغت ثلاث عشرة ليلةً . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنهم كانوايتيحون الفرصة لعدوهم ليراجع نفسه لعله يهتدي لإحداهما .

- وكان في الجيش الإسلامي كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبنائهم ، فمن المؤكد أن صفوفه كانت عامرة بقراءة القرآن ، خاصة الآيات التي تحض المؤمنين على الصبر على القتال وطلب الاستشهاد في سبيل الله تعالى .

مراحل الفتح

اتجهت القوات الإسلامية - بقيادة ابن أبي سرح - صوب مدينة سبيطلة ، وما أن علم جريجوريوس بتلك الأخبار حتى أصدر أوامره إلى جيشه بالتحرك للقائهم - علما بأنه كان يتحاشى الاحتكاك بهم - حتى لا يباغتوهم في تلك المدينة ، وتتعرض بعد ذلك للسقوط والانهيار ، لأن سقوطها يعني انتهاء ملكه العريض ، لكونها عاصمة إفريقية الداخلية ، بل وسيكون دافعا لنقض البربر والروم تحالفهم معه .

وكانت القوات الإسلامية قد استقر بها المقام عند مكان يبعد عن سبيطلة حوالي ستة وثلاثين كيلو مترا ،(٨٤) ويسمى عقوبة ،(٨٥) ولقيهم بها جريجوريوس وحلفاؤه ، وكانت رغبتهم متابعة الطريق إلى سبيطلة لأنها هدفهم الحقيقي كما بينا من قبل .

(٨٤) منصور ، *قبائل المغرب* ، ١ : ١٠٩ .

(٨٥) البلاذري ، فتوح ، ٢٢٨ .

وبعد أن استنفذ ابن أبي سرح مع جريجوريوس جميع الحلول ، ولم يكن أمامه بعد ذلك إلا القتال ، أمر جنده بسرعة الاستعداد للدخول في حرب مصيرية ، فإما الاستشهاد في سبيل الله وإمّا النجاة والنصر ومتابعة الطريق لفتح المدينة - سبيطلة . وكان جريجوريوس - يصاحبه الغرور - قد أكمل استعداداته وتهيأ لقتال المسلمين قبل أن يأمر ابن أبي سرح أصحابه بأخذ الأهبة والاستعداد . [٨٦]

ولقد رسم ابن أبي سرح لنفسه ولجيشه سياسة واضحة في هذه الحرب مؤداها : الدخول مع العدو المتحالف بنصف الجيش في حين يبقى النصف الآخر موزعا في الكمائن بين الأودية والجبال والأماكن المتعددة . [٨٧]

وعلى مقربة من حصن عقوبة قام ابن أبي سرح خطيبا في جيشه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر فضل الجهاد وما لصاحبه إذا صبر واحتسب . [٨٨] « وكان يريد بذلك رفع الروح المعنوية لدى جنده لأثرها الكبير في ميادين القتال . خاصة وأن الذي في الجانب الآخر يفوقهم عددا وعدة وكان جريجوريوس يتخوف من المسلمين على نفسه وملْكه .

ولقد تركت هذه الخطبة أثرها في النفوس ، « فقد بادر المسلمون إلى عدوهم فقاتلوهم في اليوم الأول أشد قتال ، [٨٩] » لكنهم لم ينفذوا سياسة القائد في هذه الحرب ، لأنهم وجدوا ضرورة نزول الجميع في الميدان لكثرة عدوهم ، « فصبر الفريقان وذهب من الطرفين أعدادٌ كبيرة من القتلى . »[٩٠]

وفي مساء ذلك اليوم أخذ المسلمون في معالجة جرحاهم ومصابيهم ، واتجه آخرون إلى دفن الشهداء ، في حين أن مجموعة ثالثة أخذت تفكر في أحسن السبل لمباغتة العدو ، « وكان في تلك الليلة للمسلمين دويا كدوي النحل[٩١] » بذكر الله والتضرع إليه وطلب

---

(٨٦) الواقدي ، فتوح ، ١٥١ .

(٨٧) الواقدي ، فتوح ، ١٥٢ .

(٨٨) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٦ ؛ أحمد بن محمد بن عبد ربه ، *العقد الفريد* (بيروت : دار الكتاب العربي) ، ٤ : ١٠٨ .

(٨٩) الدباغ ، *معالم الإيمان* ، ١ : ٣٩ .

(٩٠) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٦ .

(٩١) الدباغ ، *معالم الإيمان* ، ١ : ٤٠ ؛ ابن عبد ربه ، *العقد الفريد* ، ٤ : ١٠٩ .

المعونة والنصر منه عملا بقول الله تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتمُ فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلّكم تُفلحون ﴾ .[٩٢] وفي اليوم الثاني عاد المسلمون إلى صفوفهم كما كانوا ، ويظهر أن حماسهم في هذا اليوم كان أعظم ، وانتبهوا إلى ما عليه عدوهم من اللهو والخمر حيث كانوا لا ينفكون عن ملاهيهم وخمورهم[٩٣] حتى في أحلك الظروف وأصعبها ، وهذا أمر ليس بمستغرب ، لانحدارهم الديني والأخلاقي . لذلك وجد جريجوريوس أن من الخير له ولجنوده أن يجنح إلى الصلح ، خاصة بعد أن رأى بوادر الهزيمة تلوح في الأفق ، وأرسل إلى ابن أبي سرح طالبا الصلح على مال يؤدّيه على أن يرتحل المسلمون عنهم ، فقبل القائد المسلم أن يدفع البربر ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار ، فدفعوها وارتحل المسلمون عنهم .[٩٤]

على أن موافقة ابن أبي سرح على الصلح الذي تقدم به البربر ليست بسبب ضعف أو خوف ، بل هو أولاً وقبل كل شيء استجابة لدعوة العزيز الحكيم من خلال الآية الكريمة ﴿ وإنْ جَنَحُوا للسِّلْم فاجْنَحْ لها وتوكَّلْ على الله ﴾ .[٩٥] ثم إن الموافقة على هذاالصلح كانتَ فرصة لابن أبي سرح أن يعيد ترتيب قواته من جديد ، ويستعين بمدد آخر باعتبار أن القوة لم تكن متكافئة بين الطرفين ، وإن كانوا قد أحرزوا النصر عليهم ، وهذا ليس بمستغرب ! فالإيمان في الصدور يجعل المقاتل المسلم يقاتل عشرة أو أكثر منهم . ولنا في غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم شاهدٌ ملموس . فقد التقى المسلمون في بدر الكبرى وعددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا بأضعاف هذا العدد ثلاث مرات أو تزيد قليلا ، حيث كان عدد عدوهم من مشركي مكة نحو تسعمائة وخمسين رجلاً ،[٩٦] ومع ذلك نصر الله عز وجل المسلمين نصرا مؤزرا ، كما التقى المسلمون في القادسية بالفرس وعددهم لا

---

(٩٢) سورة الأنفال ، آية ٤٥ .

(٩٣) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٦ ؛ ابن عبد ربه ، *العقد الفريد* ، ٤ : ١٠٩ .

(٩٤) ابن أعثم ، *الفتوح* ، ٢ : ١٣٦ ، ١٣٧ وفي رواية ألفي ألف وخمسمائة دينار ، ابن خلدون ، *العبر* ، ٢ : ١٢٩ . وقيل ألفين وخمسمائة دينار ، ابن تغري بردي ، *النجوم* ، ١ : ٨٠ .

(٩٥) سورة الأنفال ، آية ٦١ .

(٩٦) ابن هشام ، *السيرة* ، ٢ : ٢٦٢ ؛ محمد بن جرير الطبري ، *تاريخ الأمم والملوك* (بيروت : دار سويدان ، ١٣٨٤ هـ) ، ٢ : ٤٢٣ .

يتجاوز ثلاثين ألفا في حين وصل عدد قوات الفرس مائة وعشرين ألفًا، وربما وصل مائتي ألف، ومَنَّ الله تعالى على المسلمين بالنصر العاجل .[٩٧]

وبالنظر إلى حملة عمرو بن العاص على إفريقية - سنة ٢٢هـ/ ٦٤٣م - ومقارنتها بهذا الفتح، نجد أن المسلمين في المرة الأولى لم يتوغلوا داخل الأراضي الإفريقية، بعكس الأخيرة (الفتح الثاني لإفريقية) فقد توغلوا إلى الداخل . فكان من أهم إيجابياته أن المسلمين وقفوا على حالة السكان الاجتماعية، وعرفوا مدى الروابط بينهم، مما سيكون له أثره في الاختلاط بين المسلمين والبربر، حيث أقبلوا يتعرفون على الإسلام عن قرب، وسارعوا إلى الدخول فيه، كما أن المسلمين خرجوا من هذه المعركة بفائدة عظيمة وهي التعرف على خطة العدو في القتال، وما وصلت إليه روحهم المعنوية وقوتهم المادية، الأمر الذي سيكون له أثره في المعركة التي ستليها كما سيأتي بعد قليل إن شاء الله .

الاختلاف في عدد المعارك

يرى البعض[٩٨] أن ما قام به ابن أبي سرح في سبيطلة كان معركة واحدة فقط، ويذكر فيها حركة القتال والصلح مرة واحدة . ولكن بالنظر الدقيق الفاحص إلى تفاصيل الصراع الذي دار بين الجانبين، يتضح أن هناك ما يثبت أن اللقاء جاء على مرحلتين متفرقتين، فورود صلحَيْن متفرقَيْن : الأول : على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار،[٩٩] والثاني على ثلاثمائة قنطار من الذهب،[١٠٠] يفيد - بلا شك - أن هناك أكثر من معركة وقعت بين الفريقين .

---

(٩٧) الطبري، *تاريخ*، ٣: ٤٨٧، ٥٠٥ .

(٩٨) ابن أعثم، *الفتوح*، ٢: ١٣٦-١٣٧ .

(٩٩) انظر حاشية ٩٤.

(١٠٠) وهي تساوي ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، البلاذري، فتوح، ٢٢٨ ؛ الطبري، تاريخ، ٤: ٢٥٦ ؛ المالكي، *رياض النفوس*، ١: ١٢ ؛ ابن عذاري، *البيان*، ١: ١٢ ؛ النويري، *نهاية الأرب*، ورقة ٦٦ أ ؛ الذهبي، *تاريخ*، ٢: ٨٠ ؛ ابن أبي دينار، *المؤنس*، ٢٧ ؛ الدباغ، *معالم الإيمان*، ١: ٣٥ .

كما أن اختلاف المؤرخين في تحديد فترة المعركة نفسها بين سنوات ٢٦هـ ، ٢٧ هـ ، ٢٨هـ ، ٢٩ هـ .[١٠١] مما يؤيد أن سبب الاختلاف هو تعددها (أي أنها أكثر من واحدة) ، والقول بأن تعدد التواريخ شك من الرواة في الواقعة الواحدة لا دليل عليه .

وقد أكد بعض المؤرخين على وجود حملتين لهذه الجهة المذكورة (سبيطلة) من قبل قائد واحد ، وهو عبد الله بن أبي سرح ، ونوه على أن الحملة الثانية جاءت بسبب نقض قائدهم الصلح الذي أشرنا إليه أنفا .[١٠٢] يؤكد ذلك أن ابن أعثم الكوفي[١٠٣] ذكر أن عدد الجيش الذي تصدى به البربر للمسلمين كان ستين ألفا أو يزيدون ، بينما ذكرت المصادر الأخرى أنه يصل إلى مائة وعشرين ألفا[١٠٤] - كما بينا سلفا - فلا يستبعد أن يكون كلا العددين صحيحًا ! فالعدد الذي حدده ابن أعثم جاء في اللقاء الأول ، حيث اضطر معه جريجوريوس إلى طلب الصلح .

وأما العدد الثاني الذي أجمعت عليه المصادر فقد جاء في اللقاء الثاني ، حيث استعد العدو بعد هزيمته في المرة الأولى استعدادا كاملا للمسلمين ، فحشد ضعف ذلك العدد السابق لينتقم لنفسه ولأتباعه ، ولكن الله خذله ورد كيده في نحره .

---

(١٠١) جعلها أحدهم في ثلاث سنوات (٢٧هـ/ ٦٤٧م)، (٢٨هـ/ ٦٤٨م)، (٢٩هـ/ ٦٤٩م)، البلاذري، فتوح ، ٢٢٨ ؛ وحددها آخرون في سنة ٢٧هـ/ ٦٤٧م ، الطبري ، *تاريخ* ، ٤ :٢٥٣ ؛ المالكي ، *رياض النفوس*، ١ : ١٠ ؛ ابن الأثير ، *الكامل* ، ٢ :٤٨٢ ؛ ابن عذاري ، *البيان*، ١ : ١٣ ؛ الذهبي ، *تاريخ* ، ٢ :٧٨ ؛ أبو الفلاح عبدالحي بن العماد ، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب* (بيروت : دار الكتب العلمية)، ١ :٣٦ ؛ ابن أبي دينار ، *المؤنس*، ٢٧ ؛ وحددها آخر في سنة ٢٦هـ/ ٦٤٦م، ابن خلدون ، *العبر* ، ٢ :١٢٩ . وقال آخر إنها حدثت سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧م، وهذا غير صحيح مطلقا، لأن ذلك التاريخ في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، اليعقوبي ، *البلدان*، ١٠٧ ، وجعلها آخر في ثلاث سنوات : (٢٦هـ/ ٦٤٦م) أو(٢٧هـ/ ٦٤٧م) أو (٢٩هـ/ ٦٤٩م) على اختلاف من المؤرخين، ابن أبي الضياف ، *إتحاف* ، ٧٨ .

(١٠٢) ابن تغري بردي ، *النجوم*، ١ : ٨٠ ؛ الطرابلسي ، *المنهل* ، ١ :٢٣-٢٥؛ محمود، *ليبيا* ، ١٠٥ - ١٠٧ .

(١٠٣) ابن أعثم الكوفي، *الفتوح* ، ٢ :١٣٦ .

(١٠٤) انظر حاشية ٦٨ .

وإذا كان المؤرخ ابن أعثم [١٠٥] يذكر في روايته أن جريجوريوس مضى منهزما حتى لحق أقاصي بلاد إفريقية ، ثم بعث إلى قائد المسلمين (ابن أبي سرح) يطلب الصلح ، وأن هذا القائد أجابه إلى ذلك ، وصالحه على ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وعشرين ألف دينار ، على أن يكف عنه ويخرج عن بلاده ، وأن ابن أبي سرح نفذ ذلك وخرج عن بلده ، وأن ملك الروم هرقل سمع بخبر المصالحة ، وأرسل إلى جريجوريوس يهدده بأنه إذا لم يدفع مقدار هذه الجزية التي يدفعها للمسلمين أنه سيستأصله عن حديد الأرض على اعتبار أنه هو المهيمن على إفريقية . وأن جريجوريوس ردّ عليه بأنه إن لم يكف - هرقل - عن مطالبته بالمال سيعلن ومعه البربر دخولهم الإسلام يهدده بالمسلمين ولكنه غير قادر على إجبار البربر على الإسلام ، فرجع هرقل عن تهديده وتركهم وشأنهم .

فهناك روايات أخرى [١٠٦] تذكر أن نتيجة اللقاء كانت مقتل جريجوريوس ، فضلا عن هزيمة جيشه ، مما يرجح أن يكون قد تم بين الجانبين لقاءان :

اللقاء الأول : الذي هزم فيه جريجوريوس وجيشه سنة ٢٧هـ/ ٦٤٧م وبعده طلب الصلح ، فأعطاه إياه ابن أبي سرح على ألفي ألف دينار ؛ في حين تم اللقاء الآخر بعد ذلك بعام ونصف على أكثر تقدير (أي سنة ٢٩هـ/ ٦٤٩م) وهو ما تشير إليه الروايات الأخرى حيث استعد فيه جريجوريوس بكامل قواته لينتقم من المسلمين ، فكان قتله وهزيمة جيشه في هذا اللقاء الأخير (٢٩ هـ/ ٦٤٩ م) وأن الصلح للمرة الثانية بعد تلك الهزيمة الأخيرة طلبه البربر أنفسهم ، حينما وجدوا أنه لابد منه للحفاظ على أرواحهم وأرواح الآخرين .

وعلى هذا قد يكون تهديد ملك الروم وقع بين اللقائين (أي سنة ٢٨ هـ/ ٦٤٨ م) حيث كانت الدولة البيزنطية في أشد الحاجة إلى المال . فلما نمى إلى أسماعهم ضخامة المبلغ الذي سيدفعه جريجوريوس للمسلمين وجدوا أنها فرصة مناسبة يحسّنوا بها أوضاعهم المالية بمطالبتهم بمقدار ذلك المال ، باعتبار أن هذا القائد خاضع للحكم البيزنطي -على حد ظنهم- وليس مستقلا عنهم .

---

(١٠٥) ابن أعثم الكوفي، *الفتوح*، ٢ : ١٣٦-١٣٧ .

(١٠٦) البلاذري ، فتوح ، ٢٢٨ ؛ ابن الأثير ، *الكامل* ، ٢ : ٤٨٤ ؛ ابن خلدون ، *العبر*، ٢ : ١٢٩ .

الفتح الثالث لإفريقية سنة ٢٩هـ/ ٦٤٩م - سبيطلة الثانية والأخيرة

المسلمون بين الفتحين - الحملتين - سنة ٢٨ هـ/ ٦٤٨ م

اقتضى الأمر بعد حركة الصلح التي دارت بين المسلمين والبربر أن يعود المسلمون من حيث أتوا ، وهذا - لا شك - كان فرصة طيبة أتاحت لابن أبي سرح تنظيم قواته والتقاط الأنفاس وتدعيم الجيش بقوات أخرى ، لأنهم في الحملة السابقة واجهوا قوة تفوقهم عددا وعدة . وفي هذه الفترة الزمنية (٢٨هـ/ ٦٤٨م) استعرضوا حالتهم من جميع النواحي ، فوجدوا أنهم أقوياء بإيمانهم رغم أعدادهم القليلة ، لكن هذا لم يمنعهم أن يستعينوا بمدد آخر كان قد لحق بهم من بلاد مصر ، ورأوا أنه لابد من تغيير الخطة العسكرية لتلائم المعركة القادمة . وإذا كان المسلمون قد وضعوا خطة لخوض المعركة السابقة ولم يطبقوها ، فهم هذه المرة سيضعون خطة لا تبعد عن الأولى مع الالتزام بتنفيذها كاملة ، ألا وهي الدخول بنصف الجيش المسلم مع انتظار النصف الآخر في الخيام التي ستعد لهم . (١٠٧)

وحين استعرضوا وضع عدوهم وجدوا أن حالته الاجتماعية لا تهيء له أسباب النصر ، فهم عناصر مختلفة من السكان وإن كانوا قد اندمجوا مع بعضهم البعض ، إلا أن الطبقية كانت سائدة بينهم ، كما كان هدفهم الأساس وغايتهم الحقيقية الحفاظ على أرواحهم وأملاكهم ، فضلا عن أنهم تأكدوا من ضعف عزيمتهم وشدة خوفهم . ونتيجة لذلك التفكير المستفيض زادت ثقة المسلمين بربهم وبأنفسهم ، وأصبحت نفوسهم متلهفة إلى لقاء عاجل وفتح قريب .

الموقف لدى المسلمين والبربر

يقول الحق تبارك وتعالى (١٠٨) : ﴿إنّما أمْرُه إذا أراد شيئًا أن يقولَ له كُنْ

---

(١٠٧) النويري ، *نهاية الأرب*، ورقه ٦٥ أ .

(١٠٨) سورة يس ، آية٨٢ و آية ٨٣ .

فيكون ، فسبحان الذي بيده مَلكُوتُ كلِّ شيء وإليه تُرجَعُون ﴾ . ولقد شاءت إرادة المولى لهذا الليل الطويل أن ينجلي ولهذه الغيوم الكثّيفة أن تنقشع عن سماء إفريقية ، فقد أقدم جريجوريوس على نقض الصلح الذي أبرمه مع المسلمين. (١٠٩) فكان حقا على المسلمين أن يتحركوا لتأديب هذا القائد ويفتحوا سبيطلة فتحا تاما ، فالطريق قد عرفوا مسالكه ، والجيش الإسلامي – كما سبق – اكتسب خبرة عظيمة من خلال دخوله مع العدو في المعركة الأولى ، ولو لم يفكر جريجوريوس في نقض الصلح لظلت إفريقية تتخبط في بحار الظلم والجهل والشرك فترة زمنية طويلة ، ولكنها مشيئة الله وإرادته وحكمته . وهذا يذكرنا بحال مشركي مكة حين عقد معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية ، فنقضوا تلك الشروط المكتوبة بينهم وخالفوها ، فكان حقا على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن يؤدبوهم ويفتحوا مكة . (١١٠)

وبما أن جريجوريوس بدأ نقض الصلح فمن المؤكد أنه حشد قوات مضاعفة ربما وصلت إلى مائة وعشرين ألفا أو أكثر كما بينا ، (١١١) باعتبار أنه جاء هذه المرة لينتقم من المسلمين الذين تلَقَّى الهزيمة على أيديهم . وهنا تصور لنا بعض المصادر (١١٢) وضع هذا القائد وقواته داخل الميدان الذي كان بجوار مدينة سبيطلة ، إذ تقول إنه – جريجوريوس – كان يقف خلف قواته ، ممتطيا برذونا (١١٣) أشهب اللون ، وعن يمينه وشماله جاريتان تظلانه من حرارة الشمس بريش الطواويس ، بينما كانت ابنته تطل على أرض المعركة من

(١٠٩) الطرابلسي ، *المنهل العذب* ، ١ : ٢٤ ؛ الزاوي ، *تاريخ الفتح* ، ٨٦ ؛ محمود ، *ليبيا* ، ١٠٥-١٠٦ ؛ البرغوثي ، *تاريخ ليبيا* ، ٤٩ .

(١١٠) ابن هشام ، *السيرة* ، ٤ : ٢٥ ؛ الطبري ، *تاريخ* ، ٣ : ٤٣ ؛ ابن كثير ، *البداية* ، ٥ : ١٣٥ ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، ٢ : ٤١ .

(١١١) انظر حاشية ٦٨ .

(١١٢) ومنها ، ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١٠-١١ ؛ ابن كثير ، *البداية* ، ٧ : ١٥٨ .

(١١٣) وجمعه براذين ، والبراذين من الخيل ما كان من غير نتاج العرب (ابن منظور ، *لسان العرب* ، ١٣ : ٥١ .

أعلى المنصة (الديدبان) [١١٤] التي أقامها والدها ليشرف منها على جيشه أثناء القتال ، أو من أعلى الحصن القريب ، كما نرى أيضا أنها تحاط بأربعين وصيفة عليهن أجلّ الثياب وأثمن الحلي .

من المؤسف أن يعتبر البعض ما تقدم من نسج الخيال ، فقصة حاملات المظلات وابنة جريجوريوس مقبولة في حدّ ذاتها ، فالمعروف أن أصحاب الطبقة العليا كالملوك والأمراء والقادة لابد أن يحاطوا بهذه الطبقة الدنيا من الخدم والوصائف وغيرهم . ثم إن جريجوريوس وعد من يقتل عبدالله بن سعد بن أبي سرح بأن يزوجه ابنته ويمنحه ما معها من وصيفات، وبالمقابل وعد ابن أبي سرح من يقتل جريجوريوس بأن ينفله ابنة جريجوريوس مع وصيفاتها . [١١٥] وهذا الأمر يحتم على أبيها أن يجعلها مع وصيفاتها في أعلى المنصة لتكون محطّ تنافس .

أما بالنسبة للجيش الإسلامي فتذكر المصادر أن القائد المسلم انتهج سياسة الحذر الشديد ، وهذا أمر غير وارد على الإطلاق وإن كانت الرواية تقول : « أن ابن أبي سرح بقي في فسطاطه مستلقيا على ظهره . . . . » [١١٦] فلا يؤخذ من ظاهرها كما علله البعض [١١٧] أنه كان متخوفا من الوضع الذي كان موجودا آنذاك ، لأن بقية الرواية تنفي هذا التصور وتعتبره غير صحيح « فقيامه مسرعا وذهابه مع عبد الله بن الزبير ليرى العورة التي تركها العدو » [١١٨] كافيا لنفي هذا التخوف المذكور .

وعن رواية ابن عبد الحكم [١١٩] التي يقول فيها : « صلى عبد الله بن أبي سرح بالناس بإفريقية المغرب ، فلما صلى ركعتين سمع جلبة في المسجد، فراعهم ذلك وظنوا أنهم العدو ، فقطع الصلاة . »

---

(١١٤) الديدبان ، ضرب من الآلات المتحركة يصعد إليها قائد الجيش ، ليشاهد سير المعركة ، الدباغ، *معالم الإيمان*، ١ : ٣٧، هامش ١ .

(١١٥) ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١٠ .

(١١٦) ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١١ .

(١١٧) السلاوي ، *الاستقصا* ، ١ : ٣٧ ، دحلان ، *الفتوحات*، ١ : ١٢١ .

(١١٨) ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١١ .

(١١٩) ابن عبدالحكم، *فتوح إفريقية والأندلس* ، ٤١-٤٢ .

وهذا أمر طبيعي أن يكون الحذر وتوقع الشر موجودا ، لكن لا يصل إلى درجة الخوف الذي تحدث الرواة عنه ، أو فسرت هذه الرواية به ، فالحذر أمر ضروري وواجب ، خاصة في المعارك الحربية الفاصلة . قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكُم . . . ﴾ .(١٢٠)

أما اختفاؤه (أي ابن أبي سرح) في فسطاطه ، فهذا في حد ذاته ذكاء وفطنةٌ من القائد نفسه ، فهو لا يريد أن يظهر أمام العدو حتى لا يُقْتل وتتزعزع قوة المسلمين .(١٢١) وهذا أمر ليس فيه خروج عن المألوف في مثل هذا الموقف ، وهو بقاء القادة في منتصف الجيش لإدارة دفة المعركة ، وإصدار الأوامر التي يرون أنها تحقق النصر ، خاصة وقد نصب جريجوريوس جائزة لمن يقتل قائد المسلمين وهي تزويجه لابنته (يامينة) .(١٢٢) وإن هذا ليذكرنا بالعريش الذي لجأ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر الكبرى ، والذي أقامه له سعد بن معاذ ،(١٢٣) حين قال له « نبني لك عريشا يارسول الله تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم نَلْقَى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا . . . . »(١٢٤)

ويمكن أن يكون انزواؤه في فسطاطه لسبب معقول جدا ، وهو التفكير في أمر المسلمين وشأنهم ومصيرهم ، خاصة بعد أن تبين له كثافة العدو ، وهذا هو الإحساس الكبير بالمسؤولية الملقاة على عاتقه .(١٢٥)

---

(١٢٠) سورة النساء ، آية ٧١ .

(١٢١) دحلان ، *الفتوحات* ، ١ : ١٢١ .

(١٢٢) حبيب الجنحاني ، *القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي* (تونس : الدار التونسية ، ١٩٦٨م) ، ٢٩ .

(١٢٣) سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس . ويكنى أبا عمرو ، أسلم على يد مصعب بن عمير ، توفي سنة ٥هـ/ ٦٢٦م . التفصيل في : ابن سعد ، *الطبقات* ، ٣ : ٤٢٠ وما بعدها .

(١٢٤) ابن هشام ، *السيرة* ، ٢ : ٢٦٠ .

(١٢٥) ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١٠ .

وفيما يتعلق بالخوف من القتل أو الموت، فهذا أيضا غير وارد على الإطلاق ، ولا يوجد مايدعمه ويقويه ، فلم تكن هذه الغزوة أولى غزوات المسلمين مع عدو أكبر منهم عددا وعدة ، فقد خاضوا امعارك كثيرة مع الفرس والروم ، وكانوا أضعاف المسلمين مرات ومرات ، ومع هذا حقق المسلمون انتصارات باهرة ، مازالت محفورة بأحرف من نور حتى يومنا هذا، وعليه فلم يقطع المسلمون تلك المسافات البعيدة إلا وهم يعلمون علم اليقين أنهم سيقاتلون عددا يفوقهم عددا وعدة . وأكبر شاهد على ما نقول الوفد الذي بعث به قتيبة بن مسلم الباهلي [١٢٦] بقيادة هبيرة الكلابي [١٢٧] إلى ملك الصين ، فحينما قال لهم الأخير : « انصرفوا إلى صاحبكم فإني عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه . » قال له هبيرة : « كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون (يقصد الشام) وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ، وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه . » [١٢٨]

أما عن الرواية التي جاءت على لسان ابن الزبير : « فأتيت فسطاط عبد الله بن سعد ابن أبي سرح فطلبت الإذن عليه ، فقال لي حاجبه : دعه فإنه يفكر في شأنكم ، ولو اتجه له رأي لظهر أو دعا الناس به ، فقلت إني أحتاج إلى مذاكرته ، فقال إنه أمرني أن أحْبِسَ

---

(١٢٦) أبو حفص ، قتيبة بن أبي صالح مسلم بن عمرو ، أمير خراسان زمن الوليد بن عبد الملك ، افتتح فرغانة وبلاد الترك سنة ٩٥ هـ/ ٧١٣م) وولي خراسان عشر سنين، توفي سنة ٩٦هـ/ ٧١٣م الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٤٢٤ ، ٤٢٨ ؛ ابن الأثير ، *الكامل* ، ٤ : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ؛ ابن خلكان ، *وفيات* ، ٤ : ٨٦ , ٨٧ ؛ الذهبي ، *تاريخ الإسلام*، ٥ : ٤٥ ؛ جمال الدين بن نباته ، *سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون* (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٣٨٣ هـ) ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

(١٢٧) هبيرة بن المشمرج الكلابي ، نسبة إلى كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، كان مع قائد المسلمين قتيبة بن مسلم حين اتجه إلى بلاد الصين ، التفاصيل في : الطبري ، *تاريخ*، ٦ : ٥٠٠ ؛ ابن الأثير ، *الكامل*، ٤ : ٢٨٩ ؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، *لبّ الألباب في تحرير الأنساب* (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ) ، ٢ : ٢١٨ ؛ الزركلي ، *الأعلام*، ٨ : ٧٦ .

(١٢٨) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٥٠٢ .

الناس عنه حتى يَدْعوني» (١٢٩) لا تتعارض مع خطة ابن أبي سرح التي كانت تقضي بالاتجاه مباشرة إلى سبيطلة والقضاء على قوة جريجوريوس ، فكيف يتفق هذا مع مايروى من خوفه وتواريه في فسطاطه ولوم ابن الزبير إياه!

وإن صح ما سبق - الخوف والحذر الشديد من ابن أبي سرح - فنفس الأمر كان عليه جريجوريوس. (١٣٠) فحينما لمس قوة وصلابة وشجاعة المسلمين خشي على نفسه وبلاده ومكانته بين البربر والروم ، مما دفعه إلى أن يرصد جائزة مغرية وهي : تزويج ابنته (يامينة) ثمنًا لقاتل ابن أبي سرح ، (١٣١) لأنه كان يرى في مقتله ذهاب قوة المسلمين - حسب ظنه- ونسي أن كل واحد من المسلمين يعتبر قائدا بذاته . وهذا دليل قاطع على أن جريجوريوس كان يريد أن تنتهي الحرب - وبسرعة شديدة - لصالحه ، من غير أن يصاب هو أو غيره من حلفائه بأذى يذكر ، كما يفهم من ذلك أيضا مدى محبته لهذه الدنيا الفانية .

وإن كان ابن أبي سرح قابله بنفس السلاح الذي استخدمه ضده ، حيث « نادى في عسكر المسلمين أن من قتل جريجوريوس نَفَلْتُه بنْتَه - يامينه - وما معها ، » (١٣٢) إلا أن هذا لا يسوِّغ لنا أن نقول إن هذاالقائد المسلم كانَ أيضا يخشى الموت أو القتال ، وإنما أراد إلقاء الرعب في قلب جريجوريوس وتحريض أصحابه على قتله ، لأنه عرف من خلال استخدامه لهذا السلاح أن حركة التزويج هذه هي آخر الأوراق الرابحة التي بقيت لديه ، فابنته أثمن ما لديه ، فأراد القائد المسلم أن يحرق آخر أوراقه ، ويقابله بنفس الأسلوب الذي قابله به ، وهذا وهم من جريجوريوس الذي كان يظـن أن القائد المسلم ، كغيره من القادة من غير المسلمين ، إذا قتل انتهى أمر الجيش الذي معه ، ويخيل إلي أنه لو كان يعلم العكس لما استخدم هذا الأسلوب .

---

(١٢٩) ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١١ .

(١٣٠) فإنه لما رأى جريجوريوس خيل المسلمين اشتد رعبه وأهمته نفسه ، ابن عذاري : *البيان* ، ١ : ١٠ .

(١٣١) ابن خلدون ، *العبر* ، ٢ : ١٢٩ ؛ ابن أبي دينار ، *المؤنس* ، ٢٦ ؛ السلاوي ، *الاستقصا* ، ١ : ٣٧ .

(١٣٢) ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١١ ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، ٢ : ١٢٩ ؛ ابن أبي دينار ، *المؤنس* ، ٢٦ ؛ السلاوي ، *الاستقصا* ، ١ : ٣٧ .

التكتيك العسكري

كان الاتفاق على أن يصبح التكتيك العسكري شبيها بما حصل في سبيطلة الأولى والذي لم يطبقه المسلمون فيها لكثرة عدوهم . وقد نسب هذا التكتيك إلى عبد الله بن الزبير ومؤداه : أن يحتفظ القائد المسلم بمجموعة من أبطال المسلمين في خيامهم بخيلهم وعددهم ، ويقاتل بالباقي من الجيش حتى يتعب الفريقان ، فإذا انصرف الأعداء بعد الظهيرة إلى أماكنهم وخلدوا إلى الراحة وأزالوا عدة الحرب ، عاد المسلمون الذين في الخيام فحملوا عليهم وباغتوهم . [١٣٣] ومعروف ما للمباغة من أثر فعال في شلّ تفكير المباغَت، وعدم قدرته على التركيز ، مما يجعل كل حركاته في ميدان المعركة دون وعي ويلجأ إلى التسليم أو يهزم .

وقيل بل إن الخطة كانت قريبة من ذلك وهي : أن ابن أبي سرح وزع جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب، ثم سار بأصحابه ، فأشار عليه رجل من قبط مصر بأن يقوم بوضع كمين للعدو في أماكن متعددة ، بينما يدخل الجزء الآخر معهم في الحرب . [١٣٤] ويبدو واضحا أن كلاهما يؤدي نفس الغرض وهو الدخول بجزء من الجيش الإسلامي والاحتفاظ بالباقي حتى تنهار قوى العدو فينقضون عليه .

مراحل المعركة

أما عن مراحل المعركة المصيرية الفاصلة ، فقد بدأت بالحماس المضاعف من المسلمين، يدفعهم إلى ذلك حب الاستشهاد في سبيل الله ، فنراهم قد بدأوا عدوهم بالقتال مما أخاف جريجوريوس فأخذ موقفه يَضْعُفُ ويتردى . جاء ذلك من خلال إعلانه لجميع حلفائه من البربر والروم بأن هناك جوائز عظيمة لمن يقتل قائد المسلمين (ابن أبي سرح) وماهيتها :

١ - أن تكون ابنته (يامينه) زوجة للقاتل .

٢ - أن يساق إلى هذا الزوج ما مع هذه البنت من خدم وحلي .

---

(١٣٣) النويري ، *نهاية الأرب*، ورقة ٦٥ أ ؛ السلاوي ، *الاستقصا* ، ١ : ٧٥-٧٦ .

(١٣٤) الدباغ ، *معالم*، ١ : ٣٤ .

٣ - أن يضعه جريجوريوس في منزلة عظيمة جدا .

ثم أكد لحلفائه صدق استعداده لتقديم هذه الجوائز السنية بالقَسَم الذي أقسم به على المسيح والنصرانية ، [١٣٥] وهذا يدل بوضوح على أن هذا القائد كان ذلك الحين على هذا الدين وكذلك حلفاؤه .

كان هذا في اليوم الأول من المعركة ، حيث قُتلَ من الفريقين أعداد كثيرة ، وبات المسلمون ليلتهم هذه كعادتهم (في سبيطلة الأولى) وقد شغلوا بقراءة القرآن وذكر الله والتفكير في أمر القتال ، بينما بات عدوهم على خمورهم وملاهيهم . [١٣٦]

وفي اليوم الثاني عاد الطرفان إلى صفوفهم كما كانوا عليه بالأمس فزحف بعضهم على بعض ، [١٣٧] ولكن الجوائز التى أعلن عنها جريجوريوس شجعت البربر والروم والفرنجة على مضاعفة نشاطهم ، وخاصة فيما يتعلق بالبحث عن ابن أبي سرح لقتله والظفر بتلك الجوائز المذكورة .

غير أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان أكثر ذكاءً غير فطنة ، فقد أراد مقاتلة جريجوريوس بنفس السلاح الذي أشهره في وجهه ، فقد أعلن أن من يقتل جريجوريوس سينفله ابنته ثم يسوق إليه ما معها من الحلي والخدم . [١٣٨] ثم رأى أن ذلك لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق الانزواء في الفسطاط ، باعتبار أن بقاء هذا القائد في الميدان أمام عيون الأعداء يشكل خطورة عليه - بسبب الجائزة المرصودة لقاتله - وعلى المسلمين التابعين له . كما سيمكنه من التفكير المَركّز الذي يستطيع به إدارة دفة المعركة ، وتدبير أمور المسلمين ، [١٣٩] لأن الوضع الذي يَجري في الميدان بحاجة ماسة إلى تدبير عاجل وحكيم ، وهذا - بلا شك - لن يتأتى له وهو في معمعة الحرب . وفي هذا الوقت الحرج تتدخل قدرة الله عز وجل ، فقد أتيحت الفرصة لعيون المسلمين أن تنظر إلى ثغرة يمكن لبعضهم عن طريقها الوصول إلى جريجوريوس بيسر وسهولة . وكان صاحبها كما تقول الرواية

(١٣٥) الدباغ ، *معالم*، ١ : ٣٧ .

(١٣٦) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٦ ؛ ابن عبد ربه ، *العقد* ، ٤ : ١٠٩ .

(١٣٧) ابن عبد ربه ، *العقد* ، ٤ : ١١٨ ؛ الدباغ ، *معالم* ، ١ : ٤١ .

(١٣٨) الدباغ ، *معالم* ، ١ : ٣٧ .

(١٣٩) يقول ابن الزبير : « حين أتيت فسطاط عبد الله بن سعد طلبت الإذن عليه ، فقال لي حاجبه ، دعه فإنه يفكر في شأنكم ، » ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١١ .

عبد الله بن الزبير ، فقد تقدم إلى ابن أبي سرح وهو في فسطاطه ، ودعاه إلى أن يندب معه من كان قد احتفظ بهم في الخيام (من أبطال المسلمين) . ويقال إن عددهم كان ثلاثين فارسا ، ثم طلب منهم أن يكونوا خلفه ليحموا ظهره فقط بينما سيقوم هو بتنفيذ مهمة القضاء على جريجوريوس . وحينما أقبلوا عليه اعتقد أنهم رسل وافدون إليه فلما تأكد أنهم جاءوا لقتله ترك الميدان ثم ولى هاربا ، فتبعه هؤلاء الأبطال وقتلوه ، ويقال بل قتله عبد الله بن الزبير .[١٤٠]

وبعد صلاة الظهر همّ جيش جريجوريوس - ولم يكن بلغهم خبر مقتله آنذاك - بالانصراف كعادتهم ، وألقوا أسلحتهم للراحة ، وقيل إنهم خالطوهم وحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد وكَبَّروا ، فلم يتمكن الأعداء من استخدام سلاحهم ، فاتجهوا مسرعين نحو الحصن يريدون الاعتصام خلف أسواره - خاصة بعد أن بلغهم خبر مقتل جريجوريوس - لكن المسلمين سبقوهم إليه ، فحالوا بينهم وبين الدخول فيه ، فركبهم المسلمون يمينا وشمالا فتفرقوا في السهل والوعر ، وقتلوا فرسانهم وأنجادهم ، فسقط الحصن بمن فيه ، وفيهم أهل جريجوريوس ومن بينهم ابنته .[١٤١]

عبد الله بن الزبير ودوره في معركة سبيطلة

ذكرت روايات كثيرة دور ابن الزبير في هذه المعركة ، فتقول إحداها : « إن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه حينما استبطأ أخبار المسلمين في إفريقية ، بعث إليهم بجيش يقوده عبد الله بن الزبير ، ولما وصل إلى المسلمين كبَّروا فرحا بقدومه . »[١٤٢] وتقول الثانية « إنه هو الذي أشار على ابن أبي سرح بالخطة الأخيرة للحرب من تقسيم الجيش إلى قسمين . »[١٤٣] وثالثة تنسب فضل مقتل جريجوريوس إليه - ابن الزبير -

---

(١٤٠) المالكي ، *رياض النفوس*، ١ : ١٤-١٥ ؛ ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١١-١٢ ؛ الذهبي ، *تاريخ الإسلام*، ٢ : ٧٩ ؛ الدباغ ، *معالم الإيمان* ، ١ : ٣٨ .

(١٤١) ابن الأثير ، *الكامل* ، ٣ : ٣٤ .

(١٤٢) ابن الأثير ، *الكامل* ، ٢ : ٤٨٣ .

(١٤٣) ابن الأثير ، *الكامل*، ٢ : ٤٨٣ ؛ السلاوي ، *الاستقصا*، ١ : ٣٧ ؛ دحلان ، *الفتوحات*، ١ : ١٢١ .

ومؤداها « أنه – ابن أبي سرح – انتدب معه ثلاثين رجلا وتقدم بهم نحو جريجوريوس فخرق الصفوف ، ثم طعنه وسقط عن برذونه ، فقطع رأسه بالسيف ونصبه على رمحه ، وكَبّر بعد ذلك ، وأنه نفل ابنة جريجوريوس وأنها قالت هو قاتل أبي . »(١٤٤) ورواية أخرى رواها عبد الله بن الزبير نفسه ، فقال : « أغزانا عثمان رضي الله عنه ، فسار عبد الله بن أبي سرح حتى حل بعقوبة ، فقاتله أياما . . . وكنت أنا الذي قتلته . » (١٤٥)

وقد أفاضت هذه الروايات في ذكر بطولات ابن الزبير ، واعتبرته صاحب الرأي والفكر والقائد المغوار ، وهي – بلا شك – لا تخلو من حقيقة ، فنحن حين نستعرض رواية ابن عبد الحكم (١٤٦) نجدها تذكر بحذر شديد : « كان هرقل استخلف جريجوريوس فخلعه . . . فلقيه ابن أبي سرح فقاتله ، فقتله الله وكان الذي ولي قتله – فيما يزعمون – (عبد الله بن الزبير) . »

ورواية ثانية تذكر أن « يامينة كانت قد صارت لرجل من الأنصار في سهمه ، فأقبل بها منصرفا قد حملها على بعير ، فجعل يرتجز :

يابنـة جرجيـر تمشـي عقبتك إن عليـك بالحجـاز ربتـك
لتحملن عن قباء قربتك (١٤٧)

وسأَلَتْ عنه بأسلوب مشين ، فأُخْبرتْ بما قال ، فألقت بنفسها عن البعير الذي كانت عليه ، فدقت عنقها فماتت . (١٤٨)

ونلاحظ أن كلمة يزعمون في رواية ابن عبد الحكم تحتمل الشك في الخبر أكثر من اليقين ، ثم إن تسليم ابنة جريجوريوس إلى رجل من الأنصار في سهمه يوحي بأن القاتل للقائد جريجوريوس لم يكن هو عبد الله بن الزبير كما تحدثت الروايات المتعددة .

---

(١٤٤) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٤–١٥ ؛ ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١١–١٢ ؛ الذهبي ، *تاريخ الإسلام* ، ٢ : ٧٩ ؛ الدباغ ، *معالم*، ١ : ٣٨.

(١٤٥) المالكي ، *رياض النفوس*، ١ : ١٢ .

(١٤٦) ابن عبدالحكم، فتوح مصر *وأخبارها* ، ١٣٨ .

(١٤٧) ابن الأثير ، *الكامل* ، ٢ : ٤٨٤ .

(١٤٨) ابن عبد الحكم ، *فتوح إفريقية والأندلس* ، ٣٨ ، ٣٩.

ويستنتج حسين مؤنس [١٤٩] من رواية ابن عبد الحكم أن قصة قتل ابن الزبير لجريجوريوس وأخذه ابنته لا أصل لها في الحقيقة ، ولا يعدو ذلك أن يكون من اختراع الرواة . [١٥٠] ويؤيد سعد زغلول عبد الحميد [١٥١] هذا الرأي ، ويرى « أن الزبيريين هم الذين عملوا على إذاعة هذه الأمجاد عن أسرتهم ، فنسبوا إلى الزبير بن العوام فخر الانتصار فى بابليون في مصر ، كما نسبوا إلى ابنه عبد الله شرف الانتصار في سبيطلة . »

على أنه من الإنصاف والعدل الذي تقتضيه مثل هذه الأخبار أن لا نغمط عبد الله ابن الزبير حقه في واقعة سبيطلة ، فحديث المصادر المطول عنه ، وإن كان فيه بعض المبالغة ، إلا أن هذا لا يعني نفيه جملة واحدة ، فهو لا شك كان له دور عظيم في فتح سبيطلة ، كما شهدت تلك الفترة صولات وجولات لشخصه الفذّ ، وربما فاق الآخرين من القادة أو أصبح - على الأقل - في مصافهم . أما عن قاتل جريجوريوس ، فمن المؤكد أن هذا القتل جاء باشتراك مروان بن الحكم مع عبد الله بن الزبير ، وربما ساعدهم على قتله آخرون ، وهذا واضح من عدة روايات :

الأولى : رواية الدباغ [١٥٢] التي يذكر فيها « أنه حين التقى المسلمون بادر جريجوريوس بالبراز ، فبرز إليه عبد الله بن الزبير ومروان ابن الحكم ، فقتله ابن الزبير ومنهم من قال قتلاه جميعا . »

الثانية : رواية المالكي [١٥٣] والتي تقول « إنه - ابن الزبير - تقدم ومعه ثلاثين فارسا ، ومنهم مروان بن الحكم لقتل جريجوريوس . » فلا يستبعد أن يكون قد اشترك في قتله من الثلاثين فارسا ثلاثة أو أربعة - على أقل تقدير - وأقربهم إلى الموقف والمكان هو ابن الزبير ومروان بن الحكم .

---

(١٤٩) مؤنس ، *فتح العرب للمغرب* ، ٩٢ .

(١٥٠) ومنهم ، المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٣ ؛ ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١٢ ؛ ابن الأثير ، *الكامل* ، ٢ : ٤٨٤ ؛ الدباغ ، *معالم الإيمان* ، ١ : ٣٦ .

(١٥١) سعد زغلول عبدالحميد ، *فتح العرب للمغرب بين الحقيقة والأسطورة الشعبية* (القاهرة : مطبعة مصر ، ١٩٨٢م) ، ٢٩ .

(١٥٢) الدباغ ، *معالم الإيمان* ، ١ : ٣٥ .

(١٥٣) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٤-١٥ ؛ ونقلها ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١١-١٢ ؛ والدباغ ، *معالم الإيمان* ، ١ : ٣٨ .

الثالثة : ذكرها المالكي [١٥٤] أيضا ، وأوضحت أن المسلمين اندفعوا نحو جريجوريوس يتسابقون إلى قتله ، فرأت ابنتُه المسلمين يتدافعون بسيوفهم في زحام شديد - وكانت تطل على المعركة من القصر - فقالت ما لهم يتزاحمون ؟ فقالوا لها : يتزاحمون على قتل أبيك . » فتَزاحُمهم هذا يعضد من قولنا ويسنده ، حيث إن أحدهم قتله والآخر احتز رأسه ورفعه على رمحه وهكذا .

أما عن تأكيد « يامينة» لقاتل أبيها ، وتمييز ابن الزبير من بين الفرسان ، فهذا يتناقض أصلا مع ظاهر الرواية ، لأنها تقول - يامينة- « أنها رأتهم يتزاحمون . » فكيف يمكنها أن تتعرف من بين ذلك الزحام الشديد - وهي تطل من القصر - على قاتل أبيها؟ وهي لم تر أباها أصلا وسط ذلك الزحام الشديد، الأمر الذي دفعها إلى السؤال عن سببه .

سقوط سبيطلة واستراتيجية المسلمين بعد فتحها

أصبح المنهزمون في موقف لا يحسدون عليه ، فقد قتل قائدهم جريجوريوس ، وكثر القتل فيهم - علما بأن أعدادهم كانت أضعاف المسلمين مرات كثيرة - ثم سقط الحصن الذي أمَّلُوا الاحتماء به حينما ضاقت بهم السبل . فلم يكن أمامهم بعد ذلك إلا الفرار من ميدان المعركة إلى أقرب موقع يحتمون به من سيوف المسلمين ، وبما أن مدينة سبيطلة هي الظاهرة أمامهم ، لذا عقدوا آمالهم عليها وعلى من فيها لحمايتهم والدفاع عنهم ، فهي تعتبر آخرَ القلاع التي يمكن الاحتماء بها من هذا الهلاك المحقق .

ولكن المسلمين كانوا أكثر دراية وحكمة منهم ، إذ سبقوهم إلى سبيطلة وضربوا عليها حصارا شديدا، [١٥٥] فمنعوا المنهزمين من الاعتصام بها [١٥٦] فأصبحت السيطرة على أهلها جميعا سهلة جدا .

---

(١٥٤) المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٣ ؛ ونقلها ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١١ .

(١٥٥) ابن الأثير ، *الكامل*، ٢ : ٤٨٤ ؛ النويري ، *نهاية الأرب* (مخطوط) ، ورقة ٦٥ ب ؛ ابن عذاري، *البيان* ، ١ : ١٢ .

(١٥٦) يخطىء المالكي حينما يتكلم عن حصار قرطاجة ، وهو يعني - بلا شك - سبيطلة ، ويبدو أن هذا الخطأ جاء من الاعتقاد بأن قرطاجة هي عاصمة إفريقية ، وأن جريجوريوس هو حاكم إفريقية أي صاحب قرطاجة، انظر : المالكي، *رياض النفوس*، ١ : ١٣ .

فالمنهزمون من ميدان المعركة السالفة (عقوبة) كانوا متعبين ومنهارين من جميع النواحي ، حيث قُتِلَ قائدُهم ، فخلق ذلك في نفوسهم الذعر والخوف من المسلمين ، ثم منعهم المسلمون منَ الاحتماء بمدينة سبيطلة ، فكانت تلك طامة أخرى عليهم ، حيث وقعوا بين نارين .

وأهل سبيطلة أنفسهم الذين باغتهم المسلمون بذلك الحصار ، لم تُتحْ لهم فرصة الاتصال بإخوانهم الآخرين ، سواء الذين فروا من الميدان منهزمين ولجأوا إليهم ، أو ممن أراد إنقاذهم من البربر الذين هبوا لمساعدتهم حينما سمعوا بأحوالهم . وربما لو تهيأت الفرصة لاجتماع المنهزمين مع المحاصَرين داخل سبيطلة لشكلوا قوة عاتية ، ربما استعصى على المسلمين بعد ذلك فتحها ، ولعل هذا مما فطن المسلمون له فعملوا على الحيلولة دون تجمع قوات العدو ، واللقاء بكل فريق على حدة . وهذا التكتيك في الحقيقة يذكرنا بوصية المهلب بن أبي صفرة [١٥٧] حينما أوشك على الوفاة ، وأوصى أولاده بذات المعنى . [١٥٨]

وبهذا التخطيط المحكم من جانب المسلمين أصبح أمر المقاومة بالنسبة للبربر وحلفائهم ميؤوسا منه تماما ، فلم يكن أمامهم بعد هذا إلا الاعتراف بغلبة الفئة القليلة للفئة الكثيرة ، وهذا معناه سقوط عاصمة إفريقية الداخلية ، مما ترتب عليه أن غَنمَ المسلمون غنائم عظيمة ، منها الدروع والسيوف والسهام والرماح والخيول (وهذا حصلوا عليه من ميدان سبيطلة) فضلا عن غنائم أخرى متنوعة (من داخل المدينة) كان أكثرها الذهب كما

---

(١٥٧) المهلب بن أبي صفرة الأزدي العتكي ، قال فيه عبد الله بن الزبير : «هذا سيد أهل العراق .» ولد في دبا ونشأ بالبصرة ، مات بمر الروذ سنة ٨٢ هـ / ٧٠١ م ؛ التفاصيل في : ابن أعثم ، *الفتوح*، ٧٨:٧ ، ١١٩ ؛ ابن الأثير ، *الكامل*، ٤ : ١٩٢ ؛ ابن العماد ، *شذرات*، ١ : ٩١ ؛ الزركلي ، *الأعلام*، ٧ : ٣١٥ .

(١٥٨) حيث جمع أبناءه عند وفاته ، ثم دعا بسهام فحزمت ، وقال ، أترونكم كاسريها مجتمعة ؟ قالوا ، لا . قال ، أترونكم كاسريها متفرقة؟ قالوا ، نعم ؛ قال فهكذا الجماعة ، الطبري ، *تاريخ*، ٦ : ٣٥٤ .

تقول إحدى روايات المالكي. [١٥٩] وبعدما رأى بطارقتهم أن قوات المسلمين أخذت تواصل جهودها في فتح بقية أجزاء إفريقية حتى وصلت إلى حصن الجم، [١٦٠] رأى هؤلاء - البطارقة - أن من الخير لهم أن يطلبوا الصلح من المسلمين على أمور منها :

١ - أن ما غنمه المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أخذوه بعد الصلح ردوه إليهم .

٢ - أن يكف ابن أبي سرح عن مواصلة القتال والفتح، ويخرج عن بلادهم .

٣ - أن يدفعَ البربرُ المنهزمون للمسلمين جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة قنطار من الذهب، [١٦١] وهي تساوي ألف ألف دينار، وخمسمائة ألف دينار. [١٦٢]

إن المتأمل لشروط هذا الصلح يتضح له أنها جاءت في صالح المسلمين، فَحِرْصُ ابن أبي سرح على أن يستبقي ما فتحه من البلاد تحت يده أمْرٌ عظيم وعلى قدر كبيرٍ من الأهمية . فلربما كانت هذه البلاد المفتوحة عَوْنًا - فيما بعد - على التوغل داخل إفريقية وماوراءها؛ وإن لم يتخذ الإجراءات التي تكفل له تنفيذ هذا الشرط؛ إذ أنه لم يترك خلْفَه حاكما ولا حامية ولا قيروانا [١٦٣] (قاعدة قوية) . فأصبح أهل البلاد في حلّ من

---

(١٥٩) المالكي، *رياض النفوس*، ١ : ١٣ .

(١٦٠) (الأجم، العجم، الأعاجم) حصن منيع من أعظم حصون إفريقية، ويقع جنوبي مدينة القيروان، وكان يعرف في العصر البيزنطي باسم Thysderas، انظر التفاصيل في : مؤنس، فتح *العرب*، ٩٧، هامش ٤ .

(١٦١) ابن أعثم، *الفتوح*، ٢ : ١٣٦-١٣٧؛ وقارن بالسلاوي، *الاستقصا*، ١ : ٧٦ .

(١٦٢) وقدره البعض بألفي ألف وخمسمائة ألف دينار (٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار)، البلاذري، فتوح، ٢٢٨ - ٢٢٩؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٢ : ٤٨٤ . وقدره البعض الآخر بألفي ألف دينار وخمسمائة ألف وعشرين ألف دينار (٢,٥٢٠,٠٠٠ دينار)، الطبري، *تاريخ*، ٤ : ٢٥٦؛ ابن أعثم، *الفتوح*، ٢ : ١٣٦؛ الواقدي، فتوح، ١٥٢، كما قدر بألفي ألف وخمسمائة دينار، ابن خلدون، *العبر*، ٢ : ١٢٩ . وقيل صالحهم على قناطير مقنطرة من الذهب والفضة دون تحديد لقيمتها، ابن أبي الضياف، *إتحاف*، ٧٩ .

(١٦٣) البلاذري، فتوح، ٢٢٩ .

أن يستردوا ما أخذه منهم ، وهكذا فعلوا . وأمّا عن أمر التوقف عن مواصلة القتال لهم ففيه دلالة قاطعة على أن العدو اعترف بعجزه عن قتال المسلمين ، بل وأكد ذلك بوجوب سرعة مغادرة المسلمين لبلاده .

أما عن اقتناعهم بدفع الجزية للمسلمين ، فهذا هو الخضوع بعينه لقوة الدولة الإسلامية الفتية خاصة وأنهم كانوا قد رفضوا من قبل دفع هذه الجزية بشدة . وحين تم الصلح بين الجانبين أخرج ابن أبي سرح الخُمْسَ من الغنيمة ، ثم وزع الأخماس الأربعة الباقية على رجاله بمعرفة عبد الله بن عباس رضي الله عنه .[١٦٤] فكان نصيب الراجل ألف دينار ونصيب الفارس ثلاثة آلاف دينار ،[١٦٥] وهذا معناه أن الغنائم بلغت قيمتها حوالي أربعين مليون دينار ، على زعم أن نسبة الفرسان إلى الرجالة في جيش ابن سعد - الذي بلغ عشرين ألفا - لم تزد على الربع فقط ، والمعتقد أنها كانت أكثر ، أو أن يكون مقدار الغنيمة نصف هذه القيمة (أي حوالي عشرين مليونا) لو كان جيش ابن سعد عشرة آلاف فقط . ومهما قلل البعض من قيمة هذه الرواية ، وادعى أن أرقامها مبالغ فيها ،[١٦٦] فهذا لا يسوغ لنا نفيها أو استبعاد صحتها لأسباب منها :

١ - أن الرواة[١٦٧] أنفسهم عبّروا عن عظم هذه الأموال ، وقالوا إن ابن أبي سرح دُهش لأكوام المال التي كانت توضع بين يديه ، مما دعاه إلى أن يسأل الأفارقة ويقول لهم : مَن أين لكم هذا ؟ فجعل إنسان يدور كالذي يتلمس الشيء حتى وجد زيتونة فجاء بها إليه ، فقال من هذا الورق . قال وكيف ؟ قال : إن الروم ليس عندهم زيتون ، فكانوا يأتون فيشترون منا الزيت ، فنأخذ هذا الورق منهم .

---

(١٦٤) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي ، أبو العباس ، حبر الأمة ، صحابي جليل ولد بمكة ، التفاصيل في : ابن سعد ، *الطبقات* ، ٤ : ٥ ؛ الأصفهاني ، *حلية الأولياء* ، ١ : ٣١٤ ؛ الزركلي ، *الأعلام* ، ٤ : ٩٥ .

(١٦٥) ابن عبد الحكم ، *فتوح مصر* ، ٢٤٧ ؛ المالكي ، *رياض النفوس* ، ١ : ١٣ ؛ ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١٢ ؛ الدباغ ، *معالم الإيمان* ١ : ٣٥ ؛ السلاوي ، *الاستقصا* ، ١ : ٣٧ .

(١٦٦) زغلول ، *تاريخ المغرب* ، ١٦٠ .

(١٦٧) وفي مقدمتهم ابن عبد الحكم ، *فتوح إفريقية والأندلس* ، ٣٩ ؛ وقارن : ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١٢ .

٢ - رغبة الروم - الذين على الساحل - في الحصول على الغنائم والأموال التي وجدوها بأيدي المسلمين. [١٦٨] وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على كثرتها وعظمها.

٣ - مكاتبة ابن أبي سرح لنائبه على مصر (عقبة بن عامر الجهني) [١٦٩] يأمره بأن يرسل إليه بطرابلس مراكب كثيرة في البحر لتحمل أموال المسلمين وغنائمهم. [١٧٠]

تحليل لرجوع عبد الله بن أبي سرح عن إفريقية

بعد أن أنجز ابن أبي سرح مهمته في فتح سبيطلة، عاد أدراجه إلى مصر، ولم يُقِمْ خلفه قاعدة قوية للمسلمين يمكن لهم الانطلاق من خلالها فيما بعد إلى أعماق إفريقيةَ، على الرغم من أنه قد تهيأت له أسباب ذلك. فالنصر الذي أحرزه على أعدائه البربر والروم والفرنجة كان أكبر معين، ناهيك عن الأموال والسلاح الذي حازه منهم لكن يبدو أن هناك أسبابا أخرى دفعته إلى الإسراع والتعجيل بالعودة إلى مصر كان من بينها :

أولاً : أن الفتنة ضد الخليفة عثمان رضي الله عنه - آنذاك - كانت قد بدأت تلوح في الأفق، وامتدت آثارها إلى الأقاليم، فأصبح من الضرورة بمكان المبادرة بالعودة إلى مصر (باعتباره واليها)، لينظر في شؤون ولايته من جهة، وللقضاء على مظاهر الاضطراب الناشئة نتيجة سُخْط المسلمين على سياسة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه من جهة ثانية خاصة وقد خرجَ بعض الثوار من مصر إلى المدينة. [١٧١]

ثانيا : أن عدم وجود قاعدة قوية للمسلمين في إفراقية آنذاك ربما كان من أسباب رجوع القوات الإسلامية ، ثم إن موقعة سبيطلة لم تحقق لهم فتح سهل تونس بأكمله، بل جزءا منه، وهذا يفيد أنهم - لا محالة - سيتعرضون لخطرَيْن مؤكدين :

---

(١٦٨) المالكي، *رياض النفوس*، ١ : ١٧.

(١٦٩) نسبة إلى جهينة وهي قبيلة من قضاعة، شهد صفين مع معاوية وحضر فتح مصر مع عمرو بن العاص وولي مصر سنة ٤٤ هـ/ ٦٦٤ م، وهو واحد ممن جمعوا القرآن الكريم، التفاصيل في: الأصفهاني، *حلية الأولياء*، ٢ : ٨؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٢ : ١٩٤؛ السيوطي، *لب الألباب*، ١ : ٢٢٥؛ الزركلي، *الأعلام*، ٤ : ٢٤٠.

(١٧٠) المالكي، *رياض النفوس*، ١ : ١٧.

(١٧١) الطبري، *تاريخ الأمم*، ٤ : ٣٤٠.

أولهما : خطر الروم القريبين من الساحل داخل الحصون والمسالح ونقاط الحراسة، وهم على اتصال دائم بالبحر ؛ *وثانيهما* : البربر الموجودون في جهة الغرب ، والذين ربما يحصرهم من جهة الجنوب إن هم تقدموا إلى جهة الشمال ، وإن كان هذا - السبب المذكور - مستبعدا إلى حد ما بسبب ما يليه .

ثالثا : كثرة الغنائم التي حصلوا عليها من هذا الفتح العظيم ، وهو ما يفهم من قول ابن عذاري : [١٧٢] « فأصاب فيها من السبي والأموال ما لا يحيط به الوصف . . . » فلعل حرص المسلمين على ألا يقاتلهم العدو الرومي - الموجود بالساحل - بسببها لاستخلاصها من أيديهم هو الذي دفع بهم إلى التفكير في الإسراع بالعودة إلى مصر .

رابعا : التعجيل بالعودة إلى مصر لمواجهة ثورة أهل النوبة [١٧٣] الذين هددوا مصر من ناحية الجنوب . [١٧٤]

خامسا : هناك من يرى [١٧٥] أن سبب هذه العودة المفاجئة إلى مصر هو : عدم وجود الوئام بين قادة الجيش ، ويدلل على رأيه بأن « وفدا جاء إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه يشكون ابن أبي سرح في الخُمْس الذي أخذه لنفسه ، وأنهم سخطوا ذلك النفل ، كما طلبوا أن يعزله عنهم ، حيث رغبوا عن إمارته ، فبعث إليه الخليفة عثمان رضي الله عنه : أن ردّ الخمس واستخلف على إفريقية من ترضاه ويرضونه . [١٧٦]

---

(١٧٢) ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١٢ .

(١٧٣) النوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر ، وتطلق في العصور الوسطى على أجزاء وادي النيل الممتدة على جانبي النيل من قرب أسوان إلى جنوبي التقاء النيلين الأبيض والأزرق ، وذلك بالإضافة إلى مناطق من حوض النيل الأزرق والعطبرة حتى أطراف الحبشة شرقا وأقاليم كردفان ودارفور غربا ، أي أنها كانت تشمل المساحة التي يشغلها في الوقت الحاضر معظم شمال السودان ووسطه ، ياقوت ، *معجم البلدان* ، ٥ : ٣٠٩ ؛ مصطفى مسعد ، *المكتبة السودانية العربية* (القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٢م) ، ٣ ، هامش٢ .

(١٧٤) محمود شاكر ، *التاريخ الإسلامي* ، ط٤ (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٥هـ) ، ٣ : ٢٣٠ .

(١٧٥) مؤنس ، *فتح العرب* ، ١٠٠ وما بعدها .

(١٧٦) ابن عذاري ، *البيان* ، ١ : ١٣-١٤ .

وهذا أمر - من وجهة نظري - مستبعد جدا؛ فظاهر الرواية ليس فيه ما يوحي بوجود خلاف بين قادة الجيش التي أشار إليها هذا المؤرخ، ثم إن السخط جاء على النفل الذي أخذه فقط دون غيره. أما عن عدم رغبتهم في إمارته فلابد أن هناك ما يدعو إلى ذلك، وهذا ما لم توضحه المصادر. ولكن بالنظر إلى الوضع العام في الأقاليم لا نستبعد - فمن المحتمل - أن تكون بوادر الفتنة والسخط ضد الخليفة عثمان رضي الله عنه قد ظهرت واضحة، فأخذوا - أي أصحاب الفتنة - ينقمون عليه وعلى أقاربه أشياء كثيرة، ومن بينها قضية الخمس التي وجدوها حجة عليه وعلى أخيه من الرضاع - ابن أبي سرح - وهو ما يظهر من خلال استجابته لإعادة الخمس، ثم رفضهم إلا أن يكون العزل معه.

أما عن استناد هذا المؤرخ على صحة قوله - بعدم وجود الوئام بين قادة الجيش - بأن ابن ابي سرح ما بعث عبد الله بن الزبير ليبشر الخليفة عثمان رضي الله عنه بالفتح إلا ليتخلص منه، فهو تفسير نتحفظ عليه لأن ابن الزبير كان له دور عظيم وفعال كما أسلفنا حيث شارك في قتل جريجوريوس، فمن حقه أن يكون صاحب البشَارة، وهذا واضح من دعوته له بعد أن تم الصلح، وقوله له «ما أحدٌ أحق بالبَشارة منكَ! فامض فبشر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه بالمدينة بما أفاء الله على المسلمين». [177]

وإذا كان أهل مصر قد نقموا على ابن أبي سرح تردده إزاء الإسلام على أيام الرسول صلى الله عليه وسلم فما الذي جعلهم يسكتون عنه طيلة هذه الفترة حتى أواخر عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه. والثابت عن هذا الرجل أنه كانت له مزاياه المعروفة، والتي لم تخف على مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فهو الذي جعل له ولاية صعيد مصر إلى جانب عمرو ابن العاص، وهذا ما رد به عثمان رضي الله عنه على عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما جادله في أمر ابن أبي سرح. [178] ثم إن مثل هذا التردد الذي انتاب عبد الله بن أبي سرح لا ينبغي أن يؤخذ عليه إلى الأبد، فقد كان نوعًا من الشك الذي يسبق اليقين ويؤكده. [179]

---

(١٧٧) ابن عذاري، *البيان*، ١ : ١٢.

(١٧٨) ابن عبد الحكم، *فتوح*، ٢٣٣.

(١٧٩) زغلول، *تاريخ المغرب*، ١ : ١٤٧.

والذي لا نشك فيه أبدا أن الوئام دائما كان موجودا بين قادة الجيش وأفراده، سواءٌ في داخل المعركة أو قبلها وبعدها ، وهو الأصل ، وإلا لما تمّ لهم تحقق الهدف المنشود الذي قطعوا فيافي الصحراء من أجله . وبناءً عليه ، فإن ما فعله ابن أبي سرح من العودة إلى مصر ، هو عين الحكمة والتكتيك العسكري المطلوب ، بل يمكن القول إنه لولا انسحابه لتعرض جيشه لخطر كبير لا تحمد عقباه .

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من بعثه الله بالمعجزات محمد وعلى آله وصحبه وبعد . لقد تم بفتح هذه المدينة أمور لها أهميتها الفعلية الملموسة ومن أهمها :

١ - انهيار أعظم القلاع الإفريقية الداخلية ، التي كانت بمثابة الحصن الحصين للرباط الثاني الذي كانت الدولة البيزنطية تعول عليه في الدفاع عن إفريقية .

٢ - انفتاح الطريق أمام القوات الإسلامية للتوغل في داخل بلاد المغرب فانساح المسلمون - بعد فتحها بفترة - في البسائط بالغارات، ووقع بينهم وبين أهل الضواحي من البربر زحوف وقتل وسبي .(١٨٠)

٣ - تشتيت شمل قوى التحالف الذي تكون من البربر والفرنجة والروم ، فهزيمتهم في سبيطلة وقتل قائدهم (جريجوريوس) كان بمثابة ضربة قاصمة شتت شملهم جميعا بعدها ، واتجه معظمهم يلتمس النجاة بنفسه ، حيث لحقوا بحصون إفريقية .(١٨١)

٤ - أخذ صوت الإسلام يجلجل في معظم أنحاء إفريقية ، وبدأ سكان إفريقية - وفي مقدمتهم البربر - يحسبون للمسلمين ألف حساب ، باعتبارهم القوة الغالبة .

٥ - بدأت قوة البربر في الانحدار والضعف ، فقد رغبوا (الفرنجة)وطالبوا بالصلح مع المسلمين بعد ما كانوا من أشد الناس معارضة لهم ، كما وافقوا على دفع الجزية بعد أن رفضوها رفضا قاطعا .

---

(١٨٠) السلاوي ، *الاستقصا* ، ١ : ٧٦ .

(١٨١) السلاوي ، *الاستقصا* ، ١ : ٧٦ .

٦ - تأثرت الدولة البيزنطية بفتح سبيطلة ، إذ أن خضوع قوى التحالف للمسلمين وتقديم جزية مقدارها ثلاثمائة قنطار من الذهب لهم كان باعثا قويا لإثارة أضغانهم وأحقادهم . ونتيجة لهذا بعث عظيم الروم (هرقل) أحد بطارقته ويسمى (نقفور Nicephorus) [١٨٢] ليأخذ من البربر مقدار الجزية التي دفعوها للمسلمين . وبعد أن نزل هذا البطريق قرطاجة وأخبرهم بما جاء له رفضوا وقالوا : « الواجب في هذه الحال إعانتنا لا تغريمنا . » وانتهى الأمر إلى صراع بين الجانبين ، انتصر فيه البطريرق (نقفور) [١٨٣] وخلع قائدهم الذي نصبوه عليهم بعد مقتل جريجوريوس وهو (حباحبة) ، مما دفع بالأخير إلى الذهاب إلى بلاد الشام مستنصرا بمعاوية بن أبي سفيان . [١٨٤]

٧ - عزز فتح سبيطلة من قوة الإسلام والمسلمين ، فنجد بعض ملوك هذه البقاع وفي مقدمتهم صولات بن وزمار الزناتي ثم المغراوي (جد بني خزر ملوك تلمسان) أسلم على يد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه . [١٨٥] وإسلامه يعني إسلام الكثير من أتباعه باعتباره ملكا في قومه ، وفي ذلك انتصار عظيم للإسلام وأهله .

٨ - رفع هذا الفتح من شأن البربر الذين كانوا يعاملون من قبل الروم والفرنجة على أنهم من الطبقة الثالثة - طبقة العبيد والأرقاء - التي كانت مهضومة الحقوق، حيث أصبحوا في ظل الإسلام الحنيف متساوين مع المسلمين الفاتحين ، فالإسلام لا يقرّ الطبقية أيٌّ كان نوعها، والدليل على ذلك أن صولات الزناتي بعد أن أعلن إسلامه وأطْلِقَ سراحه - وكان أسيرا عند المسلمين - عقد له على قومه، [١٨٦] وكان لهذا أثره الطيبَ في

(١٨٢) وقيل إن اسمه (أوليمه)، ابن خلدون ، *العبر*، ٢ : ١٢٩ ؛ مبارك بن محمد الميلي، *تاريخ الجزائر في القديم والحديث* (الجزائر : مكتبة النهضة الجزائرية، ١٩٦٣م)، ٢ : ٢٣ .

(١٨٣) وفي رواية أن هذا البطريرق نقفور أو أوليمه رجع مطرودا ، ولم يحصل على شيء، سالم ، *تاريخ الدولة العربية* ، ٣٦٤ ؛ الزاوي، *تاريخ الفتح العربي*، ٩٢ .

(١٨٤) ابن خلدون ، *العبر*، ٢ : ١٢٩ ؛ السلاوي ، *الاستقصا*، ١ : ٧٧ ؛ الميلي ، *تاريخ الجزائر*، ٢ : ٢٣ .

(١٨٥) السلاوي ، *الاستقصا* ، ١ : ٧٦ .

(١٨٦) السلاوي ، *الاستقصا* ، ١ : ٧٦ .

نفوس حكام إفريقية المعاصرين ، مما دفع بعضهم إلى إعلان إسلامه ، والانضواء تحت لواء هذا الدين الحنيف ودولته ، وهذا من أعظم النتائج التي ترتبت على فتح سبيطلة .

وفي ختام هذا الجهد المتواضع أسأل الله تعالى أن يكون خير هذا العمل خالصا لوجهه الكريم إنه سميع الدعاء ، وصلى الله على محمد وعلى آله صحبه أجمعين .

ملحـــق

خطبة عبد الله بن الزبير في أهل المدينة
بعد رجوعه مبشرا بفتح سبيطلة

قدم عبد الله بن الزبير المدينة مبشرا بنصر المسلمين في سبيطلة ، ثم رقى المنبر بعد أن استأذن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فقال : « الحمد لله الذي ألف بيننا بعد الفرقة ، وجعلنا متحابين بعد البغضة ، الذي لا تجحد نعماؤه ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمد نفسه وكما هو أهله ؛ انتخب محمدا صلى الله عليه وسلم واختاره بعلمه وائتمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعوانا ، قذف في قلوبهم تصديقه ومحبته ، فآمنوا به وعزّروه ووقّروه وجاهدوا في الله حق جهاده ، فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح والبيع الرابح ، وبقي منهم من بقي ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، أيها الناس - رحمكم الله - إنا خرجنا للوجه الذي علمتم ، فكنا مع والٍ حافظَ حفظَ وصية أمير المؤمنين ، فكان يسير بنا الأبردين ويحفظ بنا في الظهائر ، ويتخذ الليل جملاً ، يعجّل التَرحيل في المنزل المقفر ، ويطيل اللبث في المنزل الخصب ، فلم يزل على أحسن حالة نعرفها من ربنا ، حتى انتهينا إلى إفريقية ، فنزلنا بها حيث يسمعون صهيل الخيل ورغاء الإبل وقعقعة السلاح ، فأقمنا أياما نجم (نريح) كراعنا ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، فسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقمنا فيهم ثلاث عشرة ليلة ننتظر بهم ، وتختلف رسلنا إليهم ، فلما يئسنا منهم ، قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر فضل الجهاد وما لصاحبه إذا صبر واحتسب ؛ ثم نهز إلى عدوه ، فقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك فصبر الفريقان ، فكانت بيننا وبينهم مقتلة كبيرة ، واستشهد الله رجالاً من المسلمين ، فباتوا وبتنا ، وللمسلمين دوي كدوي النحل ، وبات المشركون في ملاهيهم وخمورهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا ، كالذي كنا عليه بالأمس ، فزحف بعضنا إلى بعض ، فأفرغ الله علينا صبره وأنزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيئا واسعا ، فبلغ فيه

الخمس مائة ألف يصفق عليها مروان بن الحكم ، فتركت المسلمين ، قد أقرت أعينهم وأغناهم النفل ، وأنا رسوله إلى أمير المؤمنين ، أبشّره وإياكم بما فتح الله من البلاد وأذلّ من الشرك ، فاحمدوا الله عباد الله على آلائه ، وما أحلّ على أعدائه من بأسه الذي لا يُردّ عن القوم المجرمين . (١٨٧)

(١٨٧) المالكي ، *رياض النفوس*، ١ :١٦ ؛ ابن عبد ربه ، *العقد*، ٤ :١٠٨-١٠٩ ؛ الدباغ ، *معالم الإيمان*، ١ :٣٩-٤٢ .

Subeitilah: One of the Decisive Islamic Battles A.H. 27 - 29 (647-649): An Analytical -Historical Study

Muhammad Nassir A. Al-Mulhim
Associate Professor, History Department, Faculty of Shari'ah,
Al-Imam Muhammad Ibn Saud Islamic University, Hofuf, Saudi Arabia

Abstract. Introducing Subeitilah: Geographically and historically, its inhabitants; their religions and the general state of Africa before the Muslims' arrival.

Motives of the Conquest: The attempt to spread Islam in those countries; the importance of Subeitilah as the principal gate for the African countries. Terminating the alliance among Barbarians, Romans and Franks against Muslims. The attempt to spread Islam in Europe (Andalusie) via Africa.

Conclusions: The collapse of the greatest African internal fortresses. Opening the way for Muslims to penetrate deep into Africa. Terminating the alliance between the Barbarians, Romans and the Franks.